المبحث الثامن

في جمع القرآن وتاريخه، والرد على ما يثار حوله من شبه، ونماذج من الروايات الواردة في ذلك

كلمة جمع القرآن تطلق تارة، ويراد منها حفظه واستظهاره في الصدور. وتطلق تارةً أخرى ويراد منها كتابته كله حروفاً وكلمات وآياتٍ وسوراً. هذا جمع في الصحائف والسطور، وذاك جمع في القلوب والصدور. ثم إن جمعه بمعنى كتابته حدث في الصدر الأول ثلاث مرات: الأولى في عهد النبي ﷺ، والثانية في خلافة أبي بكر، والثالثة على عهد عثمان، وفي هذه المرة الأخيرة وحدها نسخت المصاحف وأرسلت إلى الآفاق. وقد أُثيرت في هذا الموضوع شُبَه باردة لا مناص لنا من أن نكشف عنها اللثام، ثم نعرضها لحرارة الحقائق العلمية الصحيحة، حتى تذوب وتَنْماع، أو تذهب وتتبخر ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾[1].

جمع القرآن بمعنى حفظه في الصدور

نزل القرآن على النبي ﷺ، فكانت همته بادىء ذي بدء منصرفةً إلى أن يحفظه ويستظهره، ثم يقرأه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظهروه، ضرورة أنه نبيٌّ أميٌّ بعثه الله في الأميين. ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾[2] اهـ من سورة الجمعة. ومن شأن الأمي أن يعوّل على حافظته فيما يهمه أمره، ويعنيه استحضاره وجمعه. خصوصاً إذا أوتي من قوة الحفظ والاستظهار، ما ييسر له هذا الجمع والاستحضار. وكذلك كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن وهي متمتعة بخصائص العروبة

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٢.

الكاملة، التي منها سرعة الحفظ، وسيلان الأذهان، حتى كانت قلوبهم أناجيلهم، وعقولهم سجلات أنسابهم وأيامهم، وحوافظهم دواوين أشعارهم ومفاخرهم. ثم جاء القرآن فبهرهم بقوة بيانه، وأخذ عليهم مشاعرهم بسطوة سلطانه واستأثر بكريم مواهبهم في لفظه ومعناه، فخلعوا عليه حياتهم حين علموا أنه روح الحياة!

أما النبي ﷺ فبلغ من حرصه على استظهار القرآن وحفظه، أنه كان يحرك لسانه به في أشد حالات حرجه وشدّته، وهو يعاني ما يعانيه من الوحي وسطوته، وجبريل في هبوطه عليه بقوته. يفعل الرسول كل ذلك استعجالاً لحفظه وجمعه في قلبه، مخافة أن تفوته كلمة، أو يفلت منه حرف. وما زال ﷺ كذلك حتى طمأنهُ ربه بأن وعده أن يجمعه له في صدره، وأن يسهل له قراءة لفظه وفهم معناه، فقال له في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾[1] وقال له في سورة طه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ۝١١٤﴾[2]. ومن هنا كان ﷺ جامع القرآن في قلبه الشريف، وسيد الحفّاظ في عصره المنيف ومرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن وعلوم القرآن. وكان ﷺ يقرؤه على الناس على مكث كما أمره مولاه، وكان يحيي به الليل ويزين الصلاة. وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة. وعارضه إياه في العام الأخير مرتين. قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما: «سمعنا رسول الله ﷺ يقول: إن جبريل كان يعارضني القرآن في كلِّ سنةٍ مرَّة، وإنهُ عارضني العامَ مرتين، ولا أراهُ إلاَّ حضرَ أجلي»[3].

وأما الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كان كتاب الله في المحل الأول من عنايتهم. يتنافسون في استظهاره وحفظه. ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه. ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه. وربما كانت قرة عين السيدة منهم أن يكون مهرها في زواجها سورة من القرآن يعلمها إياها زوجها. وكانوا يهجرون لذة النوم وراحة

(١) سورة القيامة، الآيات: ١٦ ـ ١٩.
(٢) سورة طه، الآية: ١١٤.
(٣) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب ٧، والمناقب: ٢٥؛ والإمام أحمد في مسنده: ٦/ ٢٨٢.

الهجود، إيثاراً للذة القيام به في الليل، والتلاوة له في الأسحار، والصلاة به والناس نيام، حتى لقد كان الذي يمرُّ ببيوت الصحابة في غسق الدُّجى، يسمع فيها دويًّا كدويِّ النحل بالقرآن. وكان الرسول ﷺ يذكي فيهم روح هذه العناية بالتنزيل، يبلغهم ما أنزل إليه من ربه. ويبعث إلى من كان بعيد الدار منهم من يعلمهم ويقرئهم، كما بعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته، يعلمانهم الإسلام، ويقرئانهم القرآن، وكما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للتحفيظ والإقراء.

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجَّةٌ بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا».

ومن هنا كان حفّاظ القرآن في حياة الرسول ﷺ جمًّا غفيراً، منهم الأربعة الخلفاء وطلحة، وسعد، وابن مسعود، وحذيفة، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن العاص، وابنه عبد اللّه، ومعاوية، وابن الزبير، وعبد اللّه بن السائب، وعائشة، وحفصه، وأم سلمة، وهؤلاء كلهم من المهاجرين، رضوان الله عليهم أجمعين. وحفظ القرآن من الأنصار في حياته ﷺ أبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، ومجمع بن حارثة، وأنس بن مالك، وأبو زيد الذي سئل عنه أنس فقال: إنه أحد عمومتي رضي الله عنهم أجمعين. وقيل: إن بعض هؤلاء إنما أكمل حفظه للقرآن بعد وفاة النبي ﷺ. وأياً ما تكن الحال، فإن الذين حفظوا القرآن من الصحابة كانوا كثيرين، حتى كان عدد القتلى منهم ببئر معونة ويوم اليمامة أربعين ومائة. قال القرطبي: «قد قتل يوم اليمامة سبعون من القرّاء. وقتل في عهد رسول الله ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد».

قال المحقق ابن الجزري: «ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب. وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة، ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «إنّ ربِّي قالَ لي قمْ في قريْشٍ فأنذرهم، فقلتُ له أي ربِّ إذن يثلغوا رأسي حتى يدعوهُ خبزَةً. فقال: إني مبتليكَ ومبتلٍ بكَ، ومنزلٌ عليكَ كتاباً لا يغسله الماء، تقرَؤهُ نائماً ويقظانَ، فأبعثْ

جنداً أبعث مثلهم، وقاتلْ بمنْ أطاعكَ منْ عصاكَ. وأنفقْ ينفقْ عليك»[1] فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء، بل يقرأ في كل حال كما جاء في صفة أمته «أناجيلهم صدورهم» وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتب، ولا يقرؤونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب». اهـ. ما أردنا نقله.

ولا يشكلن عليك في هذا المقام ما جاء في صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «ماتَ النبيُّ ﷺ ولم يجمع القرآن غيرُ أربعةٍ: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد. قال: «ونحنُ ورثناه» وأبو زيد هذا اسمه قيسُ بن السكن كما رواه أبو داود بإسناد على شرط الشيخين. وإنما قلنا لا يشكلن عليك هذا الحديث، لأن الحصر الذي تلمحه فيه حصر نسبي، وليس حصراً حقيقيًّا حتى ينفي أن يكون غير هؤلاء الأربعة قد جمعه على عهد رسول الله ﷺ.

والدليل على أن هذا الحصر إضافي لا حقيقي هو ما رواه البخاري عن أنس نفسه أيضاً وقد سأله قتادة عمن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فقال: «أربعةٌ كلهم من الأنصار: أبيُّ بن كعبٍ، ومعاذُ بنُ جبلٍ، وزيدُ بنُ ثابتٍ، وأبو زيد» اهـ فأنت ترى أن أنساً في هذه الرواية ذكر من الأربعة أبيَّ بن كعب بدلاً من أبي الدرداء في الرواية السابقة. وهو صادق في كلتا الروايتين لأنه ليس بمعقول أن يكذِّب نفسه، فتعين أنه يريد من الحصر الذي أورده الحصر الإضافي، بأن يقال إن أنساً رضي الله عنه تعلق غرضه في وقتٍ ما بأن يذكر الثلاثة، ويذكر معهم أبيّ بن كعب دون أبي الدرداء، حاصراً الجمع فيهم، ثم علق غرضه في وقت آخر بأن يذكر الثلاثة ويذكر معهم أبا الدرداء دون أبيٍّ بن كعب.

وهذا التوجيه وإن كان بعيداً، إلا أنه يتعين المصير إليه جمعاً بين هاتين الروايتين، وبينهما وبين روايات أخرى ذكرت غير هؤلاء. ومن هنا قال الماوردي: لا يلزم من قول أنس رضي الله عنه: «لم يجمعه غيرهم» أن يكون الواقع كذلك في نفس الأمر، لأنه لا يمكن الإحاطة بذلك، مع كثرة الصحابة وتفرقهم في البلاد، ولا يتم له ذلك إلا إذا كان قد لقي كل واحد منهم، وأخبر عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن

(١) صحيح مسلم، جنة: ٦٣؛ ومسند أحمد: ٤/ ١٦٢.

في عهد النبي ﷺ. وهذا في غاية البعد في العادة. وكيف يكون الواقع ما ذكر، وقد جاء في صحيح البخاري أيضاً من طريق حفص بن عمر أن النبي ﷺ يقول: «خذوا القرآن عن أربعة: عن عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأُبيٍّ بن كعب»[1] والأربعة المذكورون منهم اثنان من المهاجرين وهما الأوّلان، واثنان من الأنصار وهما الأخيران. اهـ ولعل مراد الماوردي بهذا نفي الحصر الحقيقي وتوجيه الحصر الإضافي، على نحو ما بيَّنا مستدلين بحديث أنس نفسه كما رأيت، وبالروايات الأخرى التي حكى بعضهم فيها التواتر، وهي تصرح بأسماء أخرى غير أسماء هؤلاء الأربعة المذكورين في رواية أنس هذه. من تلك الروايات ما أخرجه النسائي[2] بسند صحيح عن عبد الله بن عمر أنه قال: «جَمَعْتُ الْقُرْآنَ فَقَرَأْتُ بِهِ كلَّ ليلةٍ، فبلغ النبيَّ ﷺ فقال لي: اقْرَأْهُ في شَهْرٍ. . . إلى آخر الحديث». ومنها ما أخرجه ابن أبي داود بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي قال: «جَمَعَ القرآنَ على عهد رسول الله ﷺ خمسةٌ من الأنصار: مُعاذ بن جبل، وعُبادة بن الصامت، وأُبيٌّ بن كعب، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري».

وذهب بعضهم إلى أن الجمع في حديث أنس المذكور مرادٌ به الكتابة لا الحفظ. وبعضهم ذهب إلى أن المراد به الجمع بوجوه القراءات كلها، أو تلقياً ومشافهةً عن الرسول ﷺ، أو الجمعُ شيئاً فشيئاً حتى تكامل نزوله.

وللإمام أبي بكر الباقلاني أجوبةٌ ثمانية يحاول بها دفع إشكال هذا الحديث. لكن ابن حجر ضعَّفها، وغيره فنَّدها، والخطب سهل على كل حال، وفيما ذكرناه كفاية للخروج من هذا الإشكال.

غير أنه لا يفوتني أن أقضي لك على هذا الإشكال بكلمة أعجبتني عن المازري إذ يقول ما نصُّه: «وقد تمسك بقول أنس هذا جماعة من الملاحدة، ولا متمسَّك لهم فيه فإنا لا نسلم حمله على ظاهره: سلمناه. ولكن من أين لهم أن الواقع في نفس الأمر كذلك؟ سلمناه لكن لا يلزم من كون كل من الجم الغفير لم يحفظه كله ألاَّ يكون حفظ مجموعه الجمّ الغفير. وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه، بل إذا حفظ

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: ٨.
(٢) سنن النسائي، كتاب الصيام: ٧٦.

الكلُّ الكلَّ ولو على التوزيع كفى، وقال القرطبي: قد قتل يوم اليمامة سبعون، وقتل في عهد النبي ﷺ ببئر معونة مثل هذا العدد. قال: وإنما خَصّ أنسٌ الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم دون غيرهم، أو لكونهم كانوا في ذهنه دون غيرهم» اهـ.

ثم إن ما ذكرناه في هذا المقام لا يتجاوز دائرة الصحابة الذين جمعت صدورهم كتاب الله في حياة رسول الله ﷺ. أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام فقد أتمَّ حفظ القرآن آلافٌ مؤلفة من الصحابة، واشتهر بإقراء القرآن من بينهم سبعة: عثمان، وعلي، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعري. كلهم جمعوا التنزيل بين حنايا صدورهم، وأقرؤوه لكثير غيرهم؛ جازاهم الله أحسن الجزاء. آمين.

ولعلك أيها القارىء الكريم لا تستكثر منا هذا المجهود الطويل في حديث أنس السابق، فإن بعض الملاحدة قد اتخذ منه مثاراً للطعن في تواتر القرآن. ومن وظيفتنا أن نردَّ المطاعن ونُفحم الطاعن. فأردنا أن نشبع الكلام في هذا الموضوع عند هذه المناسبة أداءً للواجب من ناحية، ولنستغني عن إيراده في الشبهات الآتية من ناحية أخرى. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾[1].

جمع القرآن بمعنى كتابته في عهد رسول الله ﷺ

قلنا: إن همَّة الرسول وأصحابه كانت منصرفةً أول الأمر، إلى جمع القرآن في القلوب بحفظه واستظهاره ضرورةَ أنه نبيٌّ أميٌّ بعثه الله في الأميين. أضف إلى ذلك أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم في ذلك العهد. ومن هنا كان التعويل على الحفظ في الصدور، يفوق التعويل على الحفظ بين السطور. على عادة العرب أيامئذٍ من جعل صفحات صدورهم وقلوبهم، دواوين لأشعارهم وأنسابهم ومفاخرهم وأيامهم.

ولكن القرآن حظي بأوفى نصيب من عناية النبي ﷺ وأصحابه، فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره، عن عنايتهم بكتابته ونقشه؛ ولكن بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواتها في عصرهم.

---

(١) سورة الحج: الآية: ٤٠.

فها هو ذا رسول الله ﷺ، قد اتَّخَذ كُتَّاباً للوحي، كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته، مبالغةً في تسجيله وتقييده. وزيادةً في التوثُّق والضبط والاحتياط في كتاب الله تعالى حتى تُظاهر الكتابةُ الحفظ ويُعاضِد النقشُ اللفظ.

وكان هؤلاء الكُتاب من خيرة الصحابة، فيهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية، وأبان بن سعيد، وخالد بن الوليد، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وثابت بن قيس، وغيرهم. وكان ﷺ يدلهم على موضع المكتوب من سورته. فيكتبونه فيما يسهل عليهم من العُسُب[١] واللِّخاف[٢]، والرقاع[٣]، وقطع الأديم[٤] وعظام الأكتاف والأضلاع. ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله ﷺ. وهكذا انقضى العهد النبوي السعيد والقرآن مجموع على هذا النمط، بيدَ أنه لم يكتب في صحف ولا في مصاحف. بل كتب منثوراً كما سمعت بين الرقاع والعظام ونحوها مما ذكرنا.

روي عن ابن عباس أنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعضَ مَنْ يكتب، فقال: ضَعُوا هذِهِ السُّورَةَ في المَوضِعِ الَّذي يُذكرُ فيه كَذَا وكَذَا»[٥]. وعن زيد بن ثابت قال: «كُنَّا عِندَ رَسُولِ الله ﷺ نُؤَلِّفُ القُرآنَ مِنَ الرِّقَاعِ»[٦].

وكان هذا التأليف عبارةً عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ﷺ وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام، فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول: «ضعُوا كذَا في موضع كَذَا». ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر في ذلك إلا عن أمر الله عز وجل.

أما الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فقد كان منهم من يكتبون القرآن، ولكن فيما

---

(١) العُسُب بضم العين والسين ـ جمع عسيب ـ وهو جريد النخل. كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف العريض (م).

(٢) اللخاف ـ بكسر اللام ـ جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء وهي الحجارة الرقيقة. وقال الخطابي: صفائح الحجارة (م).

(٣) الرقاع: جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد. (م).

(٤) الأديم: الجلد. (م).

(٥) سنن أبي داود كتاب الصلاة، باب: ١٢٢.

(٦) سنن الترمذي المناقب: ٧٣؛ والإمام أحمد في المسند: ٥/ ١٨٥.

تيسر لهم من قرطاس أو كتف أو عظم أو نحو ذلك، بالمقدار الذي يبلغ الواحد عن رسول الله ﷺ. ولم يلتزموا توالي السور وترتيبها، وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورةً أنزلت على رسول الله ﷺ أو كتبها، ثم خرج في سَرِيةٍ مثلاً فنزلت في وقت غيابه سورة، فإنه كان إذا رجع يأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته، ثم يستدرك ما كان قد فاته في غيابه، فيجمعه ويتتبَّعه على حسب ما يسهل له، فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك. وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه فلا يكتب جرياً على عادة العرب في حفظ أنسابها، واستظهار مفاخرها وأشعارها من غير كتابة.

صفوة المقال: وصفوة المقال أن القرآن كان مكتوباً كله على عهد الرسول ﷺ، وكانت كتابته ملحوظاً فيها أن تشمل الأحرف السبعة التي نزل عليها، غير أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض منسوخ التلاوة، وبعض ما هو ثابت بخبر الواحد، وربما كتبه غير مرتَّب. ولم يكن القرآن على ذلك العهد مجموعاً في صحف ولا مصاحف عامة.

لماذا لم يجمع القرآن أيامئذٍ في صُحُفٍ ولا مصاحف؟

وإنما لم يجمع القرآن في صحف ولا مصاحف لاعتبارات كثيرة:

أولها: أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر حتى كتبه في صحف. ولا مثل ما وجد على عهد عثمان حتى نسخه في مصاحف. فالمسلمون وقتئذٍ بخير، والقراء كثيرون، والإسلام لم يستبحر عمرانه بعد، والفتنة مأمونة، والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة، وأدوات الكتابة غير ميسورة، وعناية الرسول باستظهار القرآن تفوق الوصف وتُوفي على الغاية، حتى في طريقة أدائه على حروفه السبعة التي نزل عليها.

ثانيها: أن النبي ﷺ كان بصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات.

ثالثها: أن القرآن لم ينزل مرة واحدة، بل نزل منجَّماً في مدى عشرين سنة أو أكثر.

رابعها: أن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله، فقد علمت أن نزوله،

كان على حسب الأسباب، أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات.

وأنت خبير بأن القرآن لو جمع في صحف أو مصاحف والحال على ما شرحنا لكان عرضة لتغيير الصحف أو المصاحف كلما وقع نسخ، أو حدث سبب. مع أن الظروف لا تساعد، وأدوات الكتابة ليست ميسورة، والتعويل كان على الحفظ قبل كل شيء. ولكن لما استقرَّ الأمر بختام التنزيل ووفاة الرسول ﷺ، وأمن النسخ، وتقرَّر الترتيب، ووُجد من الدواعي ما يقتضي نسخه في صحف أو مصاحف، وفق الله الخلفاء الراشدين فقاموا بهذا الواجب حفظاً للقرآن، وحياطة لأصل التشريع الأول، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[1].

جمع القرآن على عهد أبي بكر رضي الله عنه

ألقت الخلافة قيادها إلى أبي بكر رضي الله عنه بعد غروب شمس النبوة، وواجهتْ أبا بكر في خلافته هذه أحداثٌ شِدادٌ ومشاكل صعاب. منها موقعة اليمامة سنة ١٢ اثنتي عشرة للهجرة. وفيها دارت رحى الحرب بين المسلمين وأهل الردَّة من أتباع مُسَيْلمة الكذاب، وكانت معركة حامية الوطيس، استُشهد فيها كثير من قُرَّاء الصحابة وحَفَظَتهم للقرآن، ينتهي عددهم إلى السبعين، وأنهاه بعضهم إلى خمسمائة، من أجَلِّهم سالم مولى أبي حذيفة. ولقد هالَ ذلك المسلمين، وعزَّ الأمر على عمر، فدخل على أبي بكر وأخبره الخبر واقترح عليه أن يجمع القرآن، خشية الضياع بموت الحفَّاظ وقتل القرَّاء. فتردد أبو بكر أول الأمر لأنه كان وقَّافاً عند حدود ما كان عليه الرسول ﷺ يخاف أن يجرَّه التجديد إلى التبديل، أو يسوقه الإنشاء والاختراع، إلى الوقوع في مهاوي الخروج والابتداع.

ولكن بعد مفاوضة بينه وبين عمر تجلَّى له وجهُ المصلحة، فاقتنع بصواب الفكرة وشرح الله لها صدره، وعلم أن ذلك الجمع الذي يشير به عمر ما هو إلا وسيلة في أعظم الوسائل النافعة إلى حفظ الكتاب الشريف والمحافظة عليه من الضياع والتحريف، وأنه ليس من محدثات الأمور الخارجة، ولا من البدع والإضافات الفاسقة. بل هو مُسْتَمَدٌّ من القواعد التي وضعها الرسول بتشريع كتابة القرآن. واتخاذ

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

كُتَّاب للوحي، وجمع ما كتبوه عنده حتى مات صلوات الله وسلامه عليه. قال الإمام أبو عبد الله المحاسبي في كتاب فهم السنن ما نصُّه: «كتابة القرآن ليست بمحدثة، فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مُفرَّقاً في الرقاع، والأكتاف، والعُسُب، فإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً، وكان ذلك بمنزلة أوراقٍ وُجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشراً، فجمعها جامع وربطها بخيط، حتى لا يضيع منها شيء» اهـ.

تنفيذ أبي بكر للفكرة: اهتمّ أبو بكر بتحقيق هذه الرغبة، ورأى بنور الله أن يندب لتحقيقها رجلاً من خيرة رجالات الصحابة هو زيد بن ثابت رضي الله عنه، لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في جمع القرآن، ما لم يجتمع في غيره من الرجال، إذ كان من حُفَّاظ القرآن، ومن كتاب الوحي لرسول الله ﷺ، وشهد العَرْضَةَ الأخيرة للقرآن في ختام حياته ﷺ. وكان فوق ذلك معروفاً بخصوبة عقله، وشدة ورعه، وعظم أمانته، وكمال خلقه، واستقامة دينه. فاستشار أبو بكر عمر في هذا فوافقه. وجاء زيدٌ فعرض أبو بكر عليه الفكرة ورغب إليه أن يقوم بتنفيذها، فتردَّد زيدٌ أول الأمر، ولكن أبا بكر ما زال به يعالج شكوكه، ويبيِّن له وجه المصلحة، حتى اطْمَأَنَّ واقتنع بصواب ما نُدب إليه، وشرع يجمع، وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة يشرفون عليه، ويعاونونه في هذا المشروع الجلل، حتى تمَّ لهم ما أرادوا ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1].

وفي ذلك يروي البخاري[2] في صحيحه أنَّ زيد بن ثابت رضي الله عنه قال:

«أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ (أي عقب استشهاد القراء السبعين في واقعة اليمامة) فإذا عمرُ بنُ الخطاب عنده. قال أبو بكر رضي الله عنه: «إن عمر أتاني فقال: إنَّ القتلَ قد استحرَّ (أي اشتدَّ) يومَ اليمامة بقرَّاءِ القرآن، وَإني أخشى أنْ يَسْتحر القتلُ بالقراءِ بالمواطنِ فيذهب كثيرٌ من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعلُ ما لم يفعلهُ رسولُ الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خَيْرٌ، فلم يزل عمرُ يراجعُني حتى شرحَ الله صَدْرِي لذلك ورأيتُ في ذلك الذي رَأى عمرُ. قال زيد: قال أبو بكر:

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

(٢) صحيح البخاري: فضائل القرآن، باب: ٣.

إنَّكَ رجلٌ شَابٌّ عاقلٌ لا نتهمك، وقدْ كنت تكتبُ الْوَحي لرسول الله ﷺ، فَتَتَبَّع القُرآن فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقلَ جبلٍ من الجبال، ما كان أثقل عليَّ ممَّا أمرني به منْ جمعِ القرآن! قلت: كَيف تفعلون شيئاً لم يفعلْه رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خيرٌ فلم يزل أبو بكر يراجعني، حتى شرح الله صدري للَّذي شرح له صدرَ أبي بكرٍ وعمرَ. فتتبعتُ القرآن أجمعهُ من العُسبِ وَاللخَافِ وَصدورِ الرِّجالِ، حتى وَجَدْتُ آخر سورةَ التوبةِ مع أبي خزيمةَ الأنصاريِّ لَمْ أجدْها معَ أحدٍ غَيرِهِ «لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ» حتى خاتمة براءة فكانت الصحفُ عند أبي بكر حتى تَوَفَّاهُ الله، ثم عند عمرَ حَياتهُ، ثم عند حَفْصَةَ بنتِ عمر» اهـ.

فهذا الحديث ـ كما ترى ـ يدلُّ على مبلغ اهتمام كبار الصحابة بالمحافظة على القرآن وعلى مبلغ ثقة أبي بكر وعمر بزيد بن ثابت، وعلى جَدارة زيد بهذه الثقة لتوافر تلك المناقب التي ذكرها فيه أبو بكر. ويؤيد ورعَه وديانته وأمانتَه قوله: «فوَالله لو كَلَّفُوني نقْلَ جبلٍ مِنَ الجبَالِ، ما كان أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أمرني به من جَمْعِ القُرْآن». ويشهد بوفرة عقله تردُّده وتوقفه أول الأمر ومناقشتُه لأبي بكر حتى راجعه أبو بكر وأقنعه بوجه الصواب. ويتطق بدقَّة تحرِّيه قوله: «فتتبَّعْتُ القُرْآن أَجْمَعُهُ مِنَ العُسُبِ وَاللخافِ وَصُدُورِ الرِّجالِ» اهـ. رضي الله عنه وأرضاه، ورضي عنهم وعنا أجمعين.

دستور أبي بكر في كتابة الصحف

وانتهج زيد في القرآن طريقة دقيقة مُحكمة وضعها له أبو بكر وعمر، فيها ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق به من تثبُّت بالغ وحذر دقيق، وتحريات شاملة، فلم يكتف بما حفظ قلبه، ولا بما كتب بيده، ولا بما سمع بأذنه. بل جعل يتتبَّع ويستقصي آخذاً على نفسه أن يعتمد في جمعه على مصدرين اثنين: أحدهما. ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ. والثاني: ما كان محفوظاً في صدور الرجال. ويلغ من مبالغته في الحيطة والحذر أنه لم يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عَدْلان أنه كُتب بين يدي رسول الله ﷺ.

يدلُّ على ذلك ما أخرجه ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمٰن بن حاطب قال: «قَدِم عمر، فقال: من كان تلقَّى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعُسُب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهدَ شهيدان».

ويدلُّ عليه ما أخرجه أبو داود أيضاً، ولكن من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر، ولزيد: «اقْعُدَا على باب المسجدِ، فمن جاءكما بشاهِدين على شيءٍ من كِتاب الله فاكْتُباه» اهـ وهو حديثٌ رجاله ثقاتٌ وإن كان منقطعاً. قال ابن حجر: «المراد بالشاهدين: الحفظُ والكتابةُ».

وقال السخاوي في جمال القراء ما يفيد أن المراد بهما رجلان عدلان إذ يقول ما نصُّه: «المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ». ولم يعتمد زيد على الحفظ وحده ولذلك قال في الحديث الذي رواه البخاري سابقاً إنه لم يجد آخر سورة براءة إلا مع أبي خزيمة. أي لم يجدها مكتوبةً إلا مع أبي خزيمة الأنصاري، مع أن زيداً كان يحفظها، وكان كثيرٌ من الصحابة يحفظونها. ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة، زيادةً في التوثُّق، ومبالغةً في الاحتياط. وعلى هذا الدستور الرشيد تَمّ جمعُ القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة عليه دون نكير. وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف، ولعمر في الاقتراح، ولزيد في التنفيذ، وللصحابة في المعاونة والإقرار.

قال عليٌّ كرم الله وجهه: «أعْظَمُ الناس في المصاحفِ أجراً أبو بكر، رحمةُ الله عَلَى أبي بكر، هو أوَّلَ مَن جمعَ كِتَاب الله» أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن.

وقد قوبلت تلك الصحف التي جمعها زيدٌ بما تستحقُّ من عناية فائقة، فحفظها أبو بكر عنده. ثم حفظها عمر بعده. ثم حفظتها أُمُّ المؤمنين حفصة بنت عمر بعد وفاة عمر. حتى طلبها منها خليفة المسلمين عثمان رضي الله عنه، حيث اعتمد عليها في استنساخ مصاحف القرآن. ثم ردّها إليها كما يأتيك بيانُه ا الله.

مزايا هذه الصُّحف: وامتازت هذه الصحف أولاً جمعت القرآن على أدقِّ وجوه البحث والتحرِّي، وأسلم أُصول التثبُّت العلمي، كما سبق شرحه لك في الدستور السابق.

ثانياً: أنه اقْتُصِرَ فيها على ما لم تُنسخ تلاوته.

ثالثاً: أنها ظفرت بإجماع الأمة عليها، وتواترُ ما فيها. ولا يطعن في ذلك التواتر

ما مرَّ عليك من أن آخر سورة براءة لم يوجد إلا عند أبي خزيمة، فإن المراد أنه لم يوجد مكتوباً إلا عنده، وذلك لا يُنافي أنه وُجد محفوظاً عند كثرة غامرة من الصحابة بلغت حدَّ التواتر، وقد قلنا غير مرة: إن المعوَّل عليه وقتئذٍ كان هو الحفظ والاستظهار. وإنما اعتمد على الكتابة كمصدر من المصادر، زيادة في الاحتياط؛ ومبالغةً في الدقَّة والحذر. ولا يعزُبَنَّ عن بالك أن هذا الجمع كان شاملاً للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن تيسيراً على الأمة الإسلامية كما كانت الأحرف السبعة في الرقاع كذلك.

ملاحظة:

جمع القرآن في صحفٍ أو مصحف على ذلك النمط الآنف بمزاياه السابقة التي ذكرناها بين يديك، لم يعرف لأحدٍ قبل أبي بكر رضي الله عنه. وذلك لا ينافي أن الصحابة كانت لهم صحفٌ أو مصاحفُ كتبوا فيها القرآن من قبل. لكنها لم تظفر بما ظفرت به الصحف المجموعة على عهد أبي بكر، من دقة البحث والتحرِّي، ومن الاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته، ومن بلوغها حدَّ التواتر، ومن إجماع الأمة عليها، ومن شمولها للأحرف السبعة كما تقدَّم. وإذن لا يضيرنا في هذا البحث أن يقال إن علياً رضي الله عنه أول من جمع القرآن بعد رسول الله ﷺ، ولا يعكرُ صفوَ موضوعنا أن يستدلوا على ذلك بما نقله السيوطي عن ابن الغرس من حديث محمد بن سيرين عن عكرمة قال: «لمَّا كانَ بدءُ خلافةِ أبي بكر، قعدَ عليُّ بن أبي طالبٍ في بيته، فقيل لأبي بكرٍ: قدْ كرهَ بيعتكَ فأرسلَ إليه، فقال: أكرهتَ بيعتي؟ فقال: رأيتُ كتابَ الله يزادُ فيهِ: فحدثتُ نفسي ألا ألبسَ ردائي إلا لصلاةٍ حتى أجمعهُ. قال له أبو بكرٍ: فإنك نعمَ ما رأيتَ!. قال محمدٌ: فقلت لعكرمةَ: ألَّفوهُ كما أنزل الأوَّل فالأوَّلَ؟ قالَ: لوْ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يؤلِّفوه هذا التأليفَ ما استطاعوا!» اهـ وأخرج ابن أشته من وجهٍ آخر عن ابن سيرين هذا الأثر، وفيه أنه كتب في مصحفه الناسخ والمنسوخ، وأن ابن سيرين قال: فطلبت ذلك الكتاب، وكتبت فيه إلى المدينة، فلم أقدر عليه. اهـ.

نقول إن هذه الرواية وأشباهها لا تضير بحثنا، ولا تعكر صفو موضوعنا، فقصاراها أنها تثبت أن علياً أو بعض الصحابة كان قد كتب القرآن في مصحف. لكنها لا تعطي هذا المصحف تلك الصفة الإجماعية، ولا تخلع عليه تلك المزايا التي

للصحف أو المصحف المجموع في عهد أبي بكر. بل هي مصاحف فردية، ليست لها تلك الثقة ولا هذه المزايا. وإذا كانت قد سبقت في الوجود وتقدَّم بها الزمان فإن جمع أبي بكر هو الأول من نوعه على كل حال، وقد اعترف علي بن أبي طالب نفسه بهذه الحقيقة في الحديث الذي أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن آنفاً إذ قال: «أعظمُ الناسِ أجراً في المصاحفِ أبو بكرٍ، رحمةُ الله على أبي بكر، هوَ أولُ منْ جمعَ كتابَ الله».

فهذا اعترافٌ صريحٌ من أبي الحسن بالأولية لجمع أبي بكر على النحو الآنف. رضوان الله عليهم أجمعين.

جمع القرآن على عهد عثمان رضي الله عنه

اتسعت الفتوحات في زمن عثمان، واستبحر العمران، وتفرَّق المسلمون في الأمصار والأقطار، ونبتت ناشئةٌ جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن. وطال عهد الناس بالرسول والوحي والتنزيل. وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام، يأخذون بقراءةٍ من اشتهر بينهم من الصحابة، فأهل الشام يقرؤون بقراءة أبيٍّ بن كعب، وأهل الكوفة يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود، وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري، فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء ووجوه القراءة، بطريقةٍ فتحت باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن، اشتبه بما كان بين الصحابة قبل أن يعلموا أن القرآن نزل على سبعة أحرف بل كان هذا الشقاق أشد؛ لبعد عهد هؤلاء بالنبوَّة، وعدم وجود الرسول بينهم، يطمئنون إلى حكمه، ويصدرون جميعاً عن رأيه. واستفحل الداء حتى كفّر بعضهم بعضاً، وكادت تكون فتنة في الأرض وفساد كبير. ولم يقف هذا الطغيان عند حدٍّ، بل كاد يلفح بناره جميع البلاد الإسلامية حتى الحجاز والمدينة، وأصاب الصغار والكبار على سواء.

أخرج ابن أبي داود في المصاحف من طريق أبي قلابة أنه قال: «لما كانت خلافةُ عثمانَ، جعل المعلمُ يعلمُ قراءةَ الرجل، والمعلِّمُ يعلمُ قراءةَ الرجل، فجعل الغلمانُ يلتقونَ فيختلفونَ حتى ارتفع ذلك إلى المعلِّمينَ، حتى كفَّرَ بعضهم بعضاً، فبلغ ذلك عثمانَ، فخطب فقال: «أنتم عندي تختلفونَ، فمن نأى عني منَ الأمصارِ أشدُّ اختلافاً».

وصدق عثمان، فقد كانت الأمصار النائية أشدَّ اختلافاً ونزاعاً من المدينة والحجاز. وكان الذين يسمعون اختلاف القراءات من تلك الأمصار إذا جمعتهم المجامع، أو التقوا على جهاد أعدائهم، يعجبون من ذلك. وكانوا يمعنون في التعجب والإنكار، كلما سمعوا زيادةً في اختلاف طرق أداء القرآن. وتأدى بهم التعجب إلى الشكِّ والمداجاة، ثم إلى التأثيم والملاحاة. وتيقظت الفتنة التي كادت تطيحُ فيها الرؤوس، وتسفك الدماء، وتقود المسلمين إلى مثل اختلاف اليهود والنصارى في كتابهم. كما قال حذيفة لعثمان في الحديث الآتي قريباً.

أضف إلى ذلك أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها، حتى يتحاكموا إليها فيما يختلفون. إنما كان كل صحابي في إقليم، يقرئهم بما يعرف فقط من الحروف التي نزل عليها القرآن. ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الخلاف والشقاق البعيد.

لهذه الأسباب والأحداث، رأى عثمان بثاقب رأيه، وصادق نظره، أن يتدارك الخرْق قبل أن يتسع على الراقع، وأن يستأصل الداء، قبل أن يعزَّ الدواء، فجمع أعلام الصحابة وذوي البصر منهم، وأجال الرأي بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة، ووضع حدٌّ لذلك الاختلاف، وحسم مادة هذا النزاع. فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل منها إلى الأمصار، وأن يؤمر الناس بإحراق كل ما عداها، وألاَّ يعتمدوا سواها. وبذلك يرأبُ الصدع، ويجبر الكسر، وتعتبر تلك المصاحف العثمانية الرسمية نورهم الهادي في ظلام هذا الاختلاف، ومصباحهم الكشاف في ليل تلك الفتنة، وحكمهم العدل في ذاك النزاع والمراء، وشفاءهم الناجع من مصيبة ذلك الداء.

تنفيذ عثمان لقرار الجمع

وشرع عثمان في تنفيذ هذا القرار الحكيم، حول أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمسة وعشرين من الهجرة، فعهد في نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة وثقات الحفاظ، وهم: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام. وهؤلاء الثلاثة الأخيرون من قريش.

وأرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر، فبعثت إليه بالصحف التي

عندها، وهي الصحف التي جمع القرآن فيها على عهد أبي بكر رضي الله عنه. وأخذت لجنة الأربعة هؤلاء في نسخها، وجاء في بعض الروايات أن الذين ندبوا لنسخ المصاحف كانوا اثني عشر رجلاً. وما كانوا يكتبون شيئاً إلا بعد أن يعرض على الصحابة، ويقرُّوا أن رسول الله ﷺ قرأ على هذا النحو الذي نجده الآن في المصاحف.

دستور عثمان في كتابة المصاحف

ومما تواضع عليه هؤلاء الصحابة أنهم كانوا لا يكتبون في هذه المصاحف إلا ما تحققوا أنه قرآن، وعلموا أنه قد استقرَّ في العرضة الأخيرة، وما أيقنوا صحته عن النبي ﷺ مما لم ينسخ. وتركوا ما سوى ذلك نحو قراءة «فامضوا إلى ذكر الله» بدل كلمة ﴿فَٱسْعَوْا﴾[1] ونحو ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾[2] بزيادة كلمة «صالحة»، إلى غير ذلك. وإنما كتبوا مصاحف متعدِّدة، لأن عثمان رضي الله عنه قصد إرسال ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار بلاد المسلمين، وهي الأخرى متعددة، وكتبوها متفاوتةً في إثبات وحذف وبدل وغيرها، لأنه رضي الله عنه قصد اشتمالها على الأحرف السبعة. وجعلوها خالية من النقط والشكل، تحقيقاً لهذا الاحتمال أيضاً. فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه عند تجرُّدها من النقط والشكل نحو «فتبيَّنُوا» من قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا﴾[3] فإنها تصلح أن تقرأ «فَتَثَبَّتُوا» عند خُلوِّها من النقط والشكل وهي قراءة أخرى، وكذلك كلمة «نُنْشِرُها» من قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾[4] فإن تجردها من النقط والشكل كما ترى يجعلها صالحةً عندهم أن يقرؤوها «نُنْشِزُها» بالزاي، وهي قراءة واردة أيضاً، وكذلك كلمة «أُفٍ» التي ورد أنها تقرأ بسبعة وثلاثين وجهاً.

أما الكلمات التي لا تدل على أكثر من قراءة عند خلوها من النقط والشكل مع أنها واردة بقراءة أخرى أيضاً، فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم يدلُّ على قراءة، وفي بعضٍ آخر برسم آخر يدلُّ على القراءة الثانية، كقراءة «وَصَّى»

(١) سورة الجمعة، الآية: ٩.
(٢) ﴿... يأخذ كل سفينة غصباً﴾ سورة الكهف، الآية: ٧٩.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

بالتضعيف و(أَوْصَى) بالهمز، وهما قراءتان في قوله سبحانه: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾[1] وكذلك قراءة ﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ وقراءة ﴿ مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ بزيادة لفظ ﴿ مِن ﴾ في قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾[2] وهما قراءتان أيضاً.

وصفوة القول: أن اللفظ الذي لا تختلف فيه وجوه القراءات، كانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة. أما الذي تختلف فيه وجوه القراءات، فإن كان لا يمكن رسمه في الخط محتملاً لتلك الوجوه كلها، فإنهم يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه في مصحف، ثم يكتبونه برسم آخر يوافق بعض الوجوه الأخرى في مصحف آخر؛ وكانوا يتحاشون أن يكتبوه بالرسمين في مصحف واحد خشية أن يتُوهَّمَ أن اللفظ نزل مكَرراً بالوجهين في قراءة واحدة، وليس كذلك. بل هما قراءتان نزل اللفظ في إحداهما بوجهٍ واحد، وفي الثانية بوجهٍ آخر من غير تكرار في واحدةٍ منهما.

وكذلك كانوا يتحاشَوْن أن يكتبوا هذا اللفظ في مصحف واحد برسمين: أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية، لئلا يتوهم أن الثاني تصحيح للأول. أضف إلى ذلك أن كتابة أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية دون العكس تحكُّم، أو ترجيحٌ بلا مرجِّح وذلك نحو كلمة (وَصَّى) بالتضعيف و(أَوْصَى) بالهمز كما سبق.

أما اللفظ الذي تختلف فيه القراءات، ويدلُّ عليه الرسم بصورة واحدة تحتمل هذا الاختلاف ويساعدهم عليه ترك الإعجام والشكل نحو «فَتَبَيَّنُوا» «وَنُنشِرُهَا» كما سلف بيانه، فتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين، شبيهة بدلالة المشترك اللفظي على كلا المعنيين المعقولين. والذي دعا الصحابة إلى انتهاج هذه الخُطَّة في رسم المصاحف وكتابتها أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله ﷺ بجميع وجوه قراءاته، وبكافة حروفه التي نزل عليها، فكانت هذه الطريقة أدنى إلى الإحاطة بالقرآن على وجوهه كلها، حتى لا يقال: إنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته، أو منعوا أحداً من القراءة بأيِّ حرف شاء؛ على حين أنها كلها منقولة نقلاً متواتراً عن النبي ﷺ؛ ورسول الله ﷺ يقول: «فأيَّ ذلك قَرأتُم أَصَبْتُم فلا تُمَاروا» وكان من الدستور الذي وضعه

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٨٩.

عثمان رضي الله عنه لهم في هذا الجمع أيضاً أنه قال لهؤلاء القرشيين: «إذا اخْتَلَفْتُم أنتُمْ وزيدُ بنُ ثابتٍ في شيءٍ مِنَ القُرْآنِ، فاكْتُبُوهُ بلسان قريشٍ، فإنما نزل بِلسانِهم»[1] ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة؛ وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحْرق.

وفي ذلك يروي البخاري في صحيحه[2] بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه، أن حذيفةَ بن اليمَانِ قدِمَ على عثمان وكانَ يغازي أهلَ الشامِ في فتح أرمينيَّةَ وأذربيجانَ معَ أهلِ العراقِ، فأفزعَ حذيفةَ اختلافهم في القراءة، فقال حذيفةُ لعثمانَ: يَا أميرَ المؤمنينَ أدركْ هذه الأمةَ قبلَ أنْ يختلفُوا في الكتَابِ اختلافَ اليهودِ والنصارى. فأرسلَ عثمانُ إلى حفصةَ: أن أرْسلي إلينا بالصحفِ ننسخهَا في المصاحف، ثمَّ نردها إليك. فأرسلتْ بها حفصةُ إلى عثمانَ، فأمرَ زيدَ بن ثَابتٍ، وعبدَ اللَّه بن الزبير، وسعيدَ بن العَاصِ، وعبدَ الرحمٰن بن الحارثِ بن هشام، فنسخوها في المصاحفِ. وقالَ عثمانُ للرهطِ القرشيينَ الثلاثةِ: «إذا اختلفتمْ أنتمْ وزيدُ بن ثابتٍ في شيء من القرآنِ فاكتبوهُ بلسانِ قريش، فإنمَا نزلَ بلسانهمْ، ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحفَ في المصاحفَ، ردَّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصةَ، فأرسلَ إلى كلِّ أفق بمصحف مما نسخوا. وأمرَ بمَا سواهُ منَ القرآنِ في كلِّ صحيفةٍ أو مصحفٍ أنْ يحرَقَ» اهـ.

تحريق عثمان للمصاحف والصحف المخالفة

بعد أن أتم عثمان نسخ المصاحف بالصورة السابقة، عمل على إرسالها وإنفاذها إلى الأقطار، وأمر أن يحرق كلُّ ما عداها مما يخالفها، سواء أكانت صحفاً أم مصاحف. وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية، وليحمل المسلمين على الجادَّة في كتاب الله من ناحية أخرى، فلا يأخذوا إلا بتلك المصاحف التي توافر فيها من المزايا ما لم يتوافر في غيرها.

وهذه المزايا هي:

١ ـ الاقتصار على ما ثبت بالتواتر، دون ما كانت روايته آحاداً.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن.

٢ ـ وإهمال ما نسخت تلاوته ولم يستقرَّ في العرضة الأخيرة.

٣ ـ وترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن. بخلاف صحف أبي بكر رضي الله عنه فقد كانت مرتبة الآيات دون السور.

٤ ـ وكتابتها بطريقة كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التي نزل عليها القرآن، على ما مرَّ بك من عدم إعجامها وشكلها، ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحد.

٥ ـ وتجريدها من كل ما ليس قرآناً كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرحاً لمعنى، أو بياناً لناسخ ومنسوخ، أو نحو ذلك.

وقد استجاب الصحابة لعثمان، فحرقوا مصاحفهم، واجتمعوا جميعاً على المصاحف العثمانية. حتى عبد الله بن مسعود الذي نقل عنه أنه أنكر أولاً مصاحف عثمان، وأنه أبى أن يحرق مصحفه، رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة، حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية، واجتماع الأمة عليها، وتوحيد الكلمة بها.

وبعدئذٍ طهر الجوُّ الإسلامي من أوبئة الشقاق والنزاع، وأصبح مصحف ابن مسعود، ومصحف أبي بن كعب، ومصحف عائشة، ومصحف علي، ومصحف سالم مولى أبي حذيفة. أصبحت كلها وأمثالها في خبر كان، مغسولة بالماء أو محروقة بالنيران. ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[1].

ورضي الله عن عثمان: فقد أرضى بذلك العمل الجليل ربه، وحافظ على القرآن، وجمع كلمة الأمة، وأغلق باب الفتنة، ولا يبرح المسلمون يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعد اليوم.

ولن يقدح في عمله هذا أنه أحرق المصاحف والصحف المخالفة للمصاحف العثمانية، فقد علمت وجهة نظره في ذلك. على أنه لم يفعل ما فعل من هذا الأمر الجلل، إلا بعد أن استشار الصحابة، واكتسب موافقتهم، بل وظفر بمعاونتهم وتأييدهم وشكرهم.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

روى أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلة قال: «سمعت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يقول: يا معشر الناس: اتقوا الله وإياكم وَالغُلُوَّ في عثمان، وقولكم: حَرَّاقُ مصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن ملإٍ منا أصحاب رسول الله ﷺ». وعن عمر بن سعيد قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لو كُنْتَ الوالي وَقْتَ عثمانَ، لفَعَلْتُ في المصاحف مِثْلَ الذي فعَلَ عثمانُ» رضي الله عن الجميع، وجزاهم أحسن الجزاء على هذا الصنيع.

فذلكة

تستطيع مما سبق أن تفرق بين مرَّات جمع القرآن في عهوده الثلاثة: عهد النبي ﷺ وعهد أبي بكر، وعهد عثمان (رضي الله عنهما) فالجمع في عهد النبي ﷺ كان عبارة عن كتابة الآيات وترتيبها ووضعها في مكانها الخاصِّ من سورها، ولكن مع بَعْثَرة الكتابة وتفرُّقها بين عُسُبٍ وعظام، وحجارة ورقاع، ونحو ذلك حسبما تيسَّر أدوات الكتابة، وكان الغرض من هذا الجمع زيادة التوثق للقرآن، وإن كان التعويل أيامئذ كان على الحفظ والاستظهار.

أما الجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه فقد كان عبارةً عن نقل القرآن وكتابته في صحف مرتَّبَ الآيات أيضاً، مقتصراً فيه على ما لم تُنسخ تلاوته مستوثقاً له بالتواتُر والإجماع. وكان الغرض منه تسجيل القرآن وتقييده بالكتابة مجموعاً مرتَّباً، خشية ذهاب شيء منه بموت حملته وحفاظه.

وأما الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه فقد كان عبارة عن نقل ما في تلك الصحف في مصحف واحد إمام، واستنساخ مصاحف منه ترسل إلى الآفاق الإسلامية ملاحَظاً فيها تلك المزايا السالف ذكرها مع ترتيب سوره وآياته جميعاً. وكان الغرض منه إطفاءَ الفتنة التي اشتعلت بين المسلمين حين اختلفوا في قراءة القرآن، وجمعَ شملهم وتوحيد كلمتهم، والمحافظة على كتاب الله من التغيير والتبديل. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[1].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦٤.

الردُّ على ما يثار حول جمع القرآن من شُبه

كان القرآن ولا يزال هَدَفاً لأعداء الإسلام، يُسدِّدون إليه سهام المطاعن، ويتَّخِذون من علومه مثاراً للشبهات يلفِّقونها زوراً وكذباً. ويروِّجونها ظلماً وعدواناً. من ذلك ما نقصُّه عليك في موضوعنا هذا مشفوعاً بالتفنيد فيما يأتي:

الشبهة الأولى وهي تعتمد على سبع شبه:

يقولون: إن في طريقة كتابة القرآن وجمعه، دليلاً على أنه قد سقط منه شيء وأنه ليس اليوم بأيدينا على ما زعم محمد أنه أُنزل عليه. واعتمدوا في هذه الشبهة على المزاعم الآتية:

أولاً: أن محمداً قال: رحم الله فلاناً لقد أذكرني كذا وكذا آية. كنت أُسقَطْتُهُنَّ ويروى أُنسِيتُهُنَّ. فهذا الحديث[1] فيه اعترافٌ من النبي نفسه بأنه أسقط عمداً بعض آيات القرآن أو أُنسيها.

ثانياً: أن ما جاء في سورة الأعلى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[2] يدلُّ بطريق الاستثناء الواقع فيه على أن محمداً قد أسقط عمداً أو أُنسي آيات لم يتَّفق له من يذكِّره إياها.

ثالثاً: أن الصحابة حذفوا من القرآن كل ما رأوا المصلحة في حذفه، فمن ذلك آية المُتعَة أسقطها علي بن أبي طالب بَتَّةً، وكان يضرب من يقرؤها وهذا مما شنَّعت عائشة به عليه فقالت: إنه يجلد على القرآن، وينهَى عنه، وقد بدَّله وحرَّفه.

رابعاً: أن أُبي بن كعب حذف من القرآن ما كان يرويه ولا نجده اليوم في المصحف وهو. «اللهمَّ إنَّا نَسْتَعِينُكَ وَنَسْتَهْدِيكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إِلَيْكَ وَنُؤْمِنُ بِكَ ونتوكَّلُ عليكَ ونُثْنِي عليكَ الخيْرَ كلَّهُ. نَشْكُرُكَ وَلاَ نكْفُرُكَ، ونخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَن يَفْجُرُكَ. اللهمَّ إِيَّاكَ نَعبُدُ وَلَكَ نُصَلِّي ونسْجُدُ، وإليكَ نَسْعَى ونَحفِدُ[3]. نَرْجُو

---

(١) رواه البخاري في كتاب الشهادات، باب: ١١؛ ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، حديث: ٢٢٤: والإمام أحمد في مسنده ٦/ ٦٢.

(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ٦ ـ ٧.

(٣) نحفد: ننشط في العمل.

رَحْمَتَكَ ونخَافُ عَذَابَكَ، إنَّ عَذَابَكَ الْجِدَّ بِالْكُفَّارِ مُلْحَقٌ».

خامساً: أن كثيراً من آياته لم يكن لها قيدٌ سوى تحفُّظ الصحابة، وكان بعضهم قد قتلوا في مغازي محمد وحروب خلفائه الأولين، وذهب معهم ما كانوا يتحفظونه قبل أن يُوعِزَ أبو بكر إلى زيد بن ثابت بجمعه، فلذلك لم يستطع زيدٌ أن يجمع سوى ما كان يتحفَّظه الأحياء.

سادساً: أن ما كان مكتوباً منه على العظام وغيرها، فإنه كان مكتوباً عليها بلا نظام ولا ضبط، وقد ضاع بعضها. وهذا ما حدا العلماء إلى الزعم أن فيه آياتٍ نُسخت حرفاً لا حكماً. وهو من غريب المزاعم. وحقيقة الأمر فيها أنها قد سقطت بتَّةً بضياع العظم الذي كانت مكتوبة عليه، ولم يبق منها سوى المعنى محفوظاً في صدورهم.

سابعاً: لما قام الحجَّاج بنُصرة بني أُمية لم يُبْقِ مصحفاً إلا جمعه وأسقط منه أشياء كثيرة كانت قد نزلت فيهم، وزاد فيه أشياء ليست منه، وكتب ستة مصاحف جديدة بتأليف ما أراده ووجَّه بها إلى مصر والشام ومكة والمدينة والبصرة والكوفة وهي القرآن المتداوَل اليوم. وَعَمَدَ إلى المصاحف المتقدمة، فلم يُبْقِ منها نسخة إلا أغلى لها الخلَّ وطرحها فيه حتى تقطَّعت. وإنما رام بما فعله أن يتزلَّف إلى بني أمية، فلم يُبْقِ في القرآن ما يسوؤهم.

نقض هذه المزاعم الباطلة:

ملخَّص هذه الشبهة أن القرآن الذي بأيدينا ناقص سقط منه ما سقط، بدليل المزاعم السبعة التي سُقْناها أمامك. وإذن فلنمحص بين يديك هذه المزاعم، لنأتي بنيات هذه الشبهة من القواعد.

١ ـ أما احتجاجهم الأول ـ وهو الحديث الذي أوردوه ـ فإنه لا ينهض حجةً لهم فيما زعموا من الشكِّ في الأصل الذي قامت عليه كتابة القرآن وجمعه. بل الأصل سليم قويم وهو وجودُ هذه الآيات مكتوبة في الوثائق التي استكْتبها الرسول، ووجودُها محفوظةً في صدور أصحابه الذين تلقَّوها عنه، والذين بلغ عددهم مبلغ التواتر، وأجمعوا جميعاً على صحته كما عُرف ذلك في دستور جمع القرآن.

إنما قُصارى هذا الخبر أنه يدلُّ على أن قراءة ذلك الرجل ذكَّرت النبي ﷺ إيَّاها، وكان قد أُنسِيهَا أو أسقطها (أي نسياناً).

وهذا النوع من النسيان لا يزعزع الثقة بالرسول، ولا يشكِّك في دقَّة جمع القرآن ونَسْخه، فإن الرسول ﷺ كان قد حفظ هذه الآيات من قبل أن يحفظها ذلك الرجل، ثم استكتبها كُتَّابَ الوحي، وبلغها الناسَ فحفظوها عنه، ومنهم رجل الرواية عبَّاد بن بشَّار رضي الله عنه على ما رُوي.

وليس في ذلك الخبر الذي ذكروه رائحة أن هذه الآيات لم تكن بالمحفوظات التي كتبها كُتَّاب الوحي، وليس فيه ما يدلُّ على أن أصحاب الرسول كانوا قد نسوها جميعاً، حتى يُخاف عليها وعلى أمثالها الضياع، ويُخشى عليها السقوط عند الجمع واستنساخ المصحف الإمام، كما يفتري أولئك الخرَّاصون. بل الرواية نفسها تُثبت صراحةً أن في الصحابة من كان يقرؤها وسمعها الرسول منه.

ثم إن دستور جمع القرآن ـ وقد مرَّ آنفاً ـ يؤيد أنهم لم يكتبوا في المصحف إلا ما تظاهر الحفظ والكتابة والإجماع على قرآنيته. ومنه هذه الآيات التي يدور عليها الكلام هنا من غير ما شك.

ولا يفوتنك في هذا المقام أمران:

أحدهما: أن كلمة «أَسْقَطْتُهُنَّ»[1] في بعض روايات هذا الحديث، معناها أسقطتُهن نسياناً، كما تدلُّ على ذلك كلمة «أَنْسِيتُهُنَّ» في الرواية الأخرى... ومحالٌ أن يُراد بها الإسقاط عمداً، لأن الرسول ﷺ لا ينبغي له ولا يعقل منه أن يبدِّل شيئاً في القرآن بزيادة أو نقص من تلقاء نفسه، وإلاَّ لكان خائناً أعظم الخيانة. والخائن لا يمكن أن يكون رسولاً.

هذا هو حكم العقل المجرَّد من الهوى، وهو أيضاً حكم النقل في كتاب الله؛ إذ يقول سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[2]، وإذ يقول جلَّ ذكره: ﴿قُلْ

(١) رواية البخاري: «أسقطهن» ولمسلم روايتان: «أسقطها» من طريق ومن طريق أخرى: «أُنسيتها» ورواية أحمد: «نسيتها».

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾[(١)].

الأمر الثاني: أن روايات هذا الخبر لا تفيد أن هذه الآيات التي سمعها الرسول من عبّاد بن بشّارٍ قد امّحَتْ من ذهنه الشريف جملةً. غاية ما تفيده أنها كانت غائبة عنه ثم ذكرها وحضرت في ذهنه بقراءة عبّاد. وغيبة الشيء عن الذهن أو غفلة الذهن عن الشيء، غير محوه منه، بدليل أن الحافظ منا لأيِّ نصٍّ من النصوص يغيب عنه هذا النصُّ إذا اشتغل ذهنه بغيره، وهو يوقن في ذلك الوقت بأنه مخزون في حافظته بحيث إذا دعا إليه داعٍ استعرضه واستحضره ثم قرأه. أما النسيان التامّ المرادف لامّحاء الشيء من الحافظة، فإن الدليل قام على استحالته على النبي ﷺ فيما يُخلُّ بوظيفة الرسالة والتبليغ. وإذا عرض له نسيان فإنه سحابة صيف لا تجيء إلا لتزول، ولا ريب أن نسيان الرسول هنا كان بعد أن أدّى وظيفته وبلغ الناس وحفظوا عنه. فهو نسيانٌ لم يخلَّ بالرسالة والتبليغ... وقال البدر العيني في باب نسيان القرآن من شرحه لصحيح البخاري ما نصُّه:

وقال الجمهور: جاز النسيان عليه (أي على النبي ﷺ) فيما ليس طريقه البلاغ والتعليم، بشرط ألاَّ يُقَرَّ عليه، بل لا بدَّ أن يذكره. وأما غيره فلا يجوز قبل التبليغ، وأما نسيان ما بلَّغه كما في هذا الحديث فهو جائز بلا خلاف» هـ.

هذا؛ ولقد كنت في الطبعة الأولى تابعت بعض الكاتبين هنا في اتهام هذه الرواية بالدسّ والوضع، ولكن تبين لي بعد إعادة النظر، وتنبيه بعض ذي الفِطَن، أن الخبر صحيح رواه الشيخان؛ ففي صحيح البخاري[(٢)] عن هشام عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سَمِعَ النبيُّ ﷺ رَجُلاً يَقرأُ في المسجد. فقالَ: يرحمُهُ الله. لَقَدْ أَذْكَرَني كذا وكذا آيةً مِن سُورَةِ كذا». زاد في رواية أخرى: «وقال: أسقَطْتُهُنَّ مِن سورةِ كذا وكذا».

وفي صحيح مسلم[(٣)] عن هشام عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ سَمع رَجُلاً يَقرأُ

(١) سورة يونس، الآية: ١٥.
(٢) البخاري: كتاب الشهادات باب: ١١.
(٣) مسلم، كتاب صلاة المسافرين: حديث ٢٢٤.

مِنَ اللَّيلِ، فقال: «يَرْحمُهُ الله لقد أذْكرني كذا وكذا آيةً كنتُ أسْقَطْتُهَا من سورة كذا وكذا».

وقال النوويُّ في كتابه التبيان في آداب حملة القرآن ما نصُّه: وثبت في الصحيحين أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ سمع رَجلاً يقرأ، فقال: «رحمهُ الله. لقد أذْكَرني آيةً كنتُ أسْقَطْتُها». وفي رواية في الصحيح «كنتُ أُنسِيتها» اهـ. سبحان ربي! ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾[1].

٢ ـ وأما احتجاجهم الثاني وهو الاستثناء الذي في قوله سبحانه: «سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ الله» فلا يدلُّ على ما زعموا؛ لأنه استثناء صوريٌّ لا حقيقيٌّ. والحكمة فيه أن يعلم الله عباده أن عدم نسيانه ﷺ الذي وعده الله إياه في قوله: «فَلَا تَنسَىٰ» إنما هو محض فضل من الله وإحسان، ولو شاء سبحانه أن ينسيه لأنساه. وفي ذلك الاستثناء الصوريِّ فائدتان: إحداهما ترجع إلى النبي ﷺ حيث يشعر دائماً أنه مغمورٌ بنعمة الله وعنايته، ما دام متذكراً للقرآن لا ينساه. والثانية تعود على أمته حيث يعلمون أن نبيهم ﷺ فيما خصه الله به من العطايا والخصائص لم يخرج عن دائرة العبودية، فلا يفتتون فيه كما فتنَ النصارى في المسيح ابن مريم.

والدليل على أن هذا الاستثناء صوريٌّ لا حقيقي أمران: **أحدهما**: ما جاء في سبب النزول وهو أن النبي ﷺ كان يتعب نفسه بكثرة قراءة القرآن حتى وقت نزول الوحي، مخافة أن ينساه ويُفلت منه، فاقتضت رحمة الله بحبيبه أن يطمئنه من هذه الناحية، وأن يريحه من هذا العناء، فنزلت هذه الآية. كما نزلت آية ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾[2] وآية ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[3].

ثانيهما: أن قوله: «إلاَّ ما شاء الله» يعلق وقوع النسيان على مشيئة الله إياه. والمشيئة لم تقع بدليل ما مرَّ بك من نحو قوله: «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ». وإذاً فالنسيان لم يقع، للعام بأن عدم حصول المعلق عليه يستلزم عدم حصول المعلق. فالذي عنده

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٢.

(٢) سورة القيامة، الآيتان: ١٦ ـ ١٧.

(٣) سورة طه، الآية: ١١٤.

ذوقٌ لأساليب اللغة، ونظرٌ في وجوه الأدلة، لا يتردَّد في أن الآية وعدٌ من الله أكيد، بأن الرسول يقرئه الله فلا ينسى، وعداً منه على وجه التأبيد، من غير استثناء حقيقي لوقت من الأوقات. وإلا لما كانت الآية مطمئنة له عليه الصلاة والسلام، ولكان نزولها أشبه بالعبث ولغو الكلام!

قال العلامة المرحوم الشيخ محمد عبده عند تفسيره للاستثناء في هذه الآية ما نصه: «ولما كان الوعد على وجه التأبيد واللزوم، ربما يوهم أن قدرة الله لا تسعُ غيره، وأن ذلك خارج عن إرادته جلَّ شأنه، جاء بالاستثناء في قوله: «إِلاَّ مَا شَاءَ الله»، فإنه إذا أراد أن ينسيك شيئاً لم يعجزه ذلك، فالقصد هو نفي النسيان رأساً. وقالوا: إن ذلك كما يقول الرجل لصاحبه: «أنتَ سهيمي فيما أملكُ إلا ما شاء الله» لا يقصد استثناء شيء، وهو من استعمال القلة في معنى النفي. وعلى ذلك جاء الاستثناء في قوله تعالى في سورة هود ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1] أي غير مقطوع. فالاستثناء في مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأبيد والتخليد، بكرم من الله وسعة جوده، لا بتحتيم عليه وإيجاب، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب، لم يمنعه من ذلك مانع.

وما ورد من أنه ﷺ نسي شيئاً كان يذكره، فذلك إن صح، فهو في غير ما أنزل الله من الكتاب والأحكام التي أمر بتبليغها. وكل ما يقال غير ذلك، فهو من مدخلات الملحدين، التي جازت على عقول المغفلين، فلوَّثوا بها ما طهره الله، فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة ﷺ، ويؤمن بكتاب الله أن يتعلق بشيء من ذلك» اهـ.

ذلك رأيٌ في معنى الاستثناء، وثمة وجه آخر فيه، وهو أنه استثناء حقيقي، غير أن المراد به منسوخ التلاوة دون غيره، ويكون معنى الآية أن الله تعالى يقرىء نبيه فلا ينسيه إلا ما شاءه وهو ما نسخت تلاوته لحكمة من الحكم التي بينها العلماء في مبحث النسخ. والدليل على هذا قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾[2] قال العلامة أبو السعود في تفسيره: وقرىء «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِكَهَا» وقرىء «مَا نُنْسِكَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَخْهَا» والمعنى أن كل آية

(١) سورة هود، الآية: ١٠٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

نذهب بها على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إزالة لفظها أو حكمها أو كليهما معاً، إلى بدل أو إلى غير بدل «نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا» أي نوع آخر هو خير للعباد بحسب الحال في النوع والثواب من الذاهبة. وقرىء بقلب الهمزة ألفاً (أو مثلها) أي فيما ذكر من النفع والثواب» اهـ ما أردنا نقله.

وأياً ما يكن معنى الاستثناء في آية «سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ» فإنه لا يفهم منه أن الرسول ﷺ نسي حرفاً واحداً مما أمرَ بتلاوته وتبليغه للخلق، وإبقاء التشريع على قراءته وقرآنيته من غير نسخ. وذلك على أن المراد من النسيان المحو التامُّ من الذاكرة. أما إن أُريد به غيبة الذهن عنه فقد سبق القول فيه قريباً. ولا تحسبن أن دواعي سهو الرسول ونسيانه تنال من مقامه، فإنها دواع شريفة على حدِّ ما قيل:

يا سائلي عن رسول الله كيف سها؟ والسهوُ من كل قلبٍ غافلٍ لاَهِي
سَهَا عن كل شيءٍ سرُّهُ، فسهَا عما سوى الله، فالتعظيم لله

(٣ و٤) وأما احتجاجهم الثالث والرابع بأن الصحابة قد حذفوا من القرآن عند جمعه ما رأوا المصلحة في حذفه، ومنه آية المتعة وصيغة القنوت، فهو احتجاجٌ باطلٌ قائم على إهمال النصوص الصحيحة المتضافرة على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن، وكانوا أيقظ الخلق في حراسة القرآن، ولهذا لم يعتبروا من القرآن إلا ما ثبت بالتواتر، وردُّوا كل ما لم يثبت تواتره لأنه غير قطعي ويأبى عليهم دينهم وعقلهم أن يقولوا بقرآنية ما ليس بقطعي. وقد سبق لك ما وضعوه من الدساتير المحكمة الرشيدة في كتابة الصحف على عهد أبي بكر، وكتابة المصاحف على عهد عثمان. فارجع إليها إن شئت لتعرف مدى إمعان هؤلاء المبطلين في التجنِّي والضلال.

وإذا كان هؤلاء الطاعنون يريدون أن يلمزوا الصحابة ويعيبوهم بهذه الحيطة البالغة لكتاب الله، حتى أسقطوا ما لم يتواتر، وما لم يكن في العرضة الأخيرة، وما نسخت تلاوته وكان يقرؤه مَنْ لم يبلغه النسخ، نقول: إذا كانوا يريدون أن يَلْمِزوا الصحابة والقرآن بذلك، فالأَوْلى لهم أن يلمزوا أنفسهم وأن يُواروا سوأتهم. لأن المسلمين كانوا ولا يزالون أكرم على أنفسهم من أن يقولوا في كتاب الله بغير علم، وأن ينسبوا إلى الله ما لم تقم عليه حجة قاطعة، وأن يسلكوا بالقرآن مسلك الكتب المحرفة

والأناجيل المبدلة. وإننا نذكّر هؤلاء بتلك الكلمة التي يردِّدونها هم، وهي: «من كان بيته من زجاج فلا يرجمنَّ الناس بالحجارة»!

وكلمة الفصل في هذا الموضوع: أن آية المتعة التي يزعمون، وصيغة القنوت التي يحكمون، لم تثبت قرآنيتهما حتى يكونا في عداد القرآن، وإن ادعوا قرآنيتهما فعليهم البيان: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[1].

قال صاحب الانتصار ما نصُّه: «إن كلام القنوت المروي أن أُبَيَّ بن كعب أثبته في مصحفه، لم تقم الحجَّة بأنه قرآن منزل، بل هو ضربٌ من الدعاء، وأنه لو كان قرآناً لنقل إلينا نقل القرآن، وحصل العلم بصحته» ثم قال: «ويمكن أن يكون منه كلام كان قرآناً منزلاً ثم نُسخ وأبيح الدعاء به وخُلط بما ليس بقرآن. ولم يصحَّ ذلك عنه، إنما روي عنه أنه أثبته في مصحفه، وقد أثبت في مصحفه ما ليس بقرآن من دعاء أو تأويل» اهـ. وهذا الدعاء هو القنوت الذي أخذ به السادة الحنفية. وبعضهم ذكر أن أبيًّا رضي الله عنه كتبه في مصحفه، وسماه سورة الخَلع والحَفْد، لورود مادَّة هاتين الكلمتين فيه، وقد عرفت توجيه ذلك.

والخلاصة أن بعض الصحابة الذي كانوا يكتبون القرآن لأنفسهم في صحف أو مصاحف خاصَّة بهم ربما كتبوا فيها ما ليس بقرآن، مما يكون تأويلاً لبعض ما غمض عليهم من معاني القرآن، أو مما يكون دعاء يجري مجرى أدعية القرآن في أنه يصح الإتيان به في الصلاة عند القنوت، أو نحو ذلك، وهم يعلمون أن ذلك كله ليس بقرآن. ولكن ندرة أدوات الكتابة، وكونهم يكتبون القرآن لأنفسهم وحدهم دون غيرهم، هوَّن عليهم ذلك؛ لأنهم أمنوا على أنفسهم اللبس واشتباه القرآن بغيره. فظنَّ بعض قصار النظر أن كل ما كتبوه فيها إنما كتبوه على أنه قرآن، مع أن الحقيقة ليست كذلك، إنما هي ما علمت. أضف إلى ذلك أن النبي ﷺ أتى عليه حينٌ من الدهر نهى عن كتابة غير القرآن إذ يقول ﷺ فيما يرويه مسلم[2]: «لا تَكْتُبُوا عني ومَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيئاً غَيْرَ القُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ» وذلك كله مخافة اللَّبس والخلط والاشتباه في القرآن الكريم.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث ٧٢.

٥ ـ وأما احتجاجهم الخامس بأن كثيراً من آيات القرآن لم يكن لها قيد سوى تحفُّظ الصحابة، وقد قُتل بعضهم وذهب معهم ما كانوا يتحفظونه، فلا يُسَلَّم لهم؛ لأن نفس ما كان يتحفظه الشهداء من القراء، كان يتحفظه كثير غيرهم أيضاً من الأحياء الذين لم يُسْتَشْهَدُوا ولم يموتوا، بدليل قول عمر: «وَأَخْشَى أنْ يموتَ القُرَّاءُ من سائرِ المواطن» ومعنى هذا أن القرَّاء كلهم لم يموتوا. إنما المسألة مسألة خشية وخوف. ومعلوم أن أبا بكر كان من الحفَّاظ، وكذلك عمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وغيرهم، وهؤلاء عاشوا حتى جمع القرآن في الصحف، وعاش منهم من عاش حتى نسخ في المصاحف وحينئذٍ فكتابة زيد ما كتبه، هي كتابة لكل القرآن لم تفلت منه كلمة ولا حرف.

وكان القرآن كله مكتوباً كما سبق شرحه وبيانه، حتى إن الصحابة في جمعه كانوا يستوثقون له بأن يعتمدوا على الحفظ والكتابة معاً، دون الاكتفاء بأحدهما وكانوا فيما يعتمدون عليه من الكتابة يتأكدون من أنه كتب بين يدي النبي ﷺ ويطلبون على ذلك شاهدين، كما سلف إيضاحه.

٦ ـ وأما احتجاجهم السادس بأن ما كان مكتوباً من القرآن على العظام ونحوها كان غير منظم ولا مضبوط الخ؛ فينقضه ما أثبتناه آنفاً في جمع القرآن، من أن ترتيب آياته كان توقيفيًّا، وأن الرسول ﷺ كان يرشد كُتَّاب الوحي ان يضعوا آية كذا في مكان كذا من سورة كذا. وكان يُقْرِئها أصحابه كذلك، ويحفظها الجميع، ويكتبها من شاء منهم لنفسه على هذا النحو، حتى صار ترتيب القرآن وضبط آياته معروفاً مستفيضاً بين الصحابة حفظاً وكتابة. ووجدوا ما كتب عند الرسول من القرآن مرتَّب الآيات كذلك في كل رقعة أو عظْمة، وإن كانت العظام والرقاع منتشرةً وكثيرةً مُبَعْثَرَةً. على أننا قرَّرنا غير مرة أن التعويل كان على الحفظ والتلقي قبل كل شيء، ولم يكن التعويل على المكتوب وحده، فلا جرم كان في الحفظ والكتابة معاً، ضمانٌ للنظام والترتيب والضبط والحصر.

وأما قولهم في هذا الاحتجاج: «وقد ضاع بعضها» فيظهر أنهم استندوا في ذلك إلى ما ورد من أنه فقدت آية من آخر سورة براءة، فلم يجدوها إلا عند خُزَيْمة بن ثابت فظنَّ هؤلاء أن هذا اعترافٌ منا بضياع شيء من مكتوب القرآن. وليس الأمر كما فهموا،

بل المعنى أن الصحابة لم يجدوا تلك الآية مكتوبة إلا عند خزيمة بخلاف غيرها من الآيات، فقد كانت مكتوبة عند عدَّة من الصحابة، ومع ذلك فقد كان الصحابة يقرؤونها ويحفظونها ويعرفونها بدليل قولهم: فقدت آية. وإلا فما أدراهم أنها فقدت من الكتابة لو لم يحفظوها؟

وأما قولهم في هذا الاحتجاج: أيضاً: إن ضياع ذلك البعض دعا الصحابة إلى دعوى النسخ وهو من غريب المزاعم، فهو قولٌ أثيمٌ أرادوا به الطعن على النسخ وإنكاره، وسيأتيك الكلام على النسخ وحكمته ودفع الشبه عنه في مبحثٍ خاص إن شاء الله.

٧ ـ وأما احتجاجهم السابع بما نسبوه إلى الحجَّاج، فهي نسبة كاذبة، لا برهان لهم بها، ولا دليل عليها. وها هو التاريخ، فليأتوا لنا منه بسلطان مبين على أن الحجاج جمع المصاحف، فضلاً عن أنه نقص منها أو زاد فيها. ولو أنه فعل ذلك لنقل إلينا متواتراً، لأن هذا مما تتوافر الدواعي على نقله وتواتره! وكيف يفعل ذلك، والأمة كلها تُقرُّه، وأئمة الدين الموجودون في عهده كالحسن البصري يسكتون ولا ينكرون، ولا يدافعون ولا يستقتلون؟ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾[1].

ثم إن الحجاج كان عاملاً من العمال على بعض أقطار الإسلام، فأنى له أن يجمع المصاحف ويحرقها فيما عدا ولايته التي هو عامل عليها؟

وإذا فرضنا أن الحجاج كان له من القوة والشوكة ما أسكت به كل الأمة في زمانه على هذا الخرق الواسع في الإسلام والقرآن، فما الذي أسكت المسلمين بعد انقضاء عهد الحجاج؟ وإذا كان الحجاج قد استطاع التحكم في المصاحف، والتلاعب فيها بالزيادة والنقص، فكيف استطاع أن يتحكم في قلوب الحفاظ وهم آلاف مؤلفة في ذلك العهد، حتى يمحو منها ما شاء ويثبت ما أراد؟

هذه دعاوى ساقطة، تحمل أدلة سقوطها في ألفاظها، وتدلُّ على جرأة القوم وإغراقهم في الجهل والضلال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾[2]. نسأل الله السلامة بمنه وكرمه؛ آمين.

---

(١) سورة صٓ، الآية: ٧.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٣.

الشبهة الثانية:

يقولون: إن القرآن كما حصل فيه نقص عند الجمع، حصلت فيه زيادة. والدليل على ذلك إنكار ابن مسعود أن المعوِّذتين من القرآن، وأن في القرآن ما هو من كلام أبي بكر وكلام عمر.

ونقض هذه الشبهة:

أولاً: بأن ابن مسعود لم يصح عنه هذا النقل الذي تمسكتم به من إنكاره كون المعوِّذتين من القرآن. والمسألة مذكورة في كثير من كتب التفسير وعلوم القرآن مع تمحيصها والجواب عليها.

وخلاصة ما قالوه: أن المسلمين أجمعوا على وجوب تواتر القرآن. ويشكل على هذا ما نقل من إنكار ابن مسعود قرآنية الفاتحة والمعوذتين. بل روي أنه حكَّ من مصحفه المعوذتين، زعماً منه أنهما ليستا من القرآن.

وقد أجابوا عن ذلك بمنع صحة النقل، قال النووي في شرح المهذَّب ما نصه: «أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأن من جحد شيئاً منها كفر. وما نقل عن ابن مسعود باطلٌ ليس بصحيح» اهـ وقال ابن حزم في كتاب القدح المعلى: (هذا كذبٌ على ابن مسعود وموضوع).. بل صحَّ عن ابن مسعود نفسه قراءةُ عاصم، وفيها المعوِّذتان والفاتحة. وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر «أنه صلى الله عليه وسلم قرأهما في الصلاةِ». زاد ابن حبان من وجه آخر عن عقبة بن عامر أيضاً: «فإن استطعتَ ألاَّ تفوتكَ قراءَتهمَا في صلاةٍ فافعل»، وأخرج أحمد[1] من طريق أبي العلاء بن الشِّخِّير عن رجل من الصحابة أن النبي ﷺ أقرأنا المعوِّذتين وقال له: إذا أنتَ صليتَ فاقرأ بهما. وإسناده صحيح.

ثانياً: يحتمل أن إنكار ابن مسعود لقرآنية المعوذتين والفاتحة على فرض صحته، كان قبل علمه بذلك، فلما تبين له قرآنيتهما بعد، وتمَّ التواتر، وانعقد الإجماع على قرآنيتهما كان في مقدِّمة من آمن بأنهما من القرآن.

(١) مسند الإمام أحمد، ٥/٧٩.

قال بعضهم: «يحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي ﷺ ولم تتواترا عنده، فتوقف في أمرهما. وإنما لم ينكر ذلك عليه، لأنه كان بصدد البحث والنظر، والواجب عليه التثبت في هذا الأمر» اهـ. ولعل هذه الجواب هو الذي تستريح إليه النفس، لأن قراءة عاصم عن زرعة عن ابن مسعود ثبت فيها المعوذتان والفاتحة وهي صحيحة، ونقلها عن ابن مسعود صحيح، وكذلك إنكار ابن مسعود للمعوذتين جاء من طريق صححه ابن حجر. إذاً فليحمل هذا الإنكار على أولى حالات ابن مسعود، جمعاً بين الروايتين.

وما يقال في نقل إنكاره قرآنية المعوذتين يقال في نقل إنكاره قرآنية الفاتحة. بل نقل إنكاره قرآنية الفاتحة، أدخل في البطلان، وأعرق في الضلال، باعتبار أن الفاتحة أم القرآن وأنها السبع المثاني التي تُثَنَّى وتكرر في كل ركعة من ركعات الصلاة، على لسان مسلم ومسلمة. فحاش لابن مسعود أن يكون قد خفي عليه قرآنيتها، فضلاً عن إنكاره قرآنيتها. وقصارى ما نقل فيها عنه أنه لم يكتبها في مصحفه، وهذا لا يدلُّ على الإنكار. قال ابن قتيبة ما نصه: «وأما إسقاطه الفاتحة من مصحفه، فليس لظنه أنها ليست من القرآن ـ معاذ الله ـ ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافةَ الشكِّ والنسيان، والزيادة والنقصان» اهـ ومعنى هذا أن عدم كتابة ابن مسعود للفاتحة في مصحفه كان سببه وضوح أنها من القرآن، وعدم الخوف عليها من الشك والنسيان والزيادة والنقصان.

ثالثاً: أننا إن سلمنا أن ابن مسعود أنكر المعوذتين وأنكر الفاتحة بل أنكر القرآن كله، فإن إنكاره هذا لا يضرُّنا في شيء، لأن هذا الإنكار لا ينقض تواتر القرآن، ولا يرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر. ولم يقل أحد في الدنيا: إن من شرط التواتر والعلم اليقيني المبني عليه ألا يخالف فيه مخالف. وإلا لأمكن هدم كل تواتر، وإبطال كل علم قام عليه، بمجرد أن يخالف فيه مخالف، ولو لم يكن في العير ولا في النفير. قال ابن قتيبة في مشكل القرآن: «ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن. لأنه رأى النبي ﷺ يعوذ بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه، ولا نقول إنه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار» اهـ.

رابعاً: أن ما زعموه من أن آية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[١] إلخ من كلام أبي بكر فهو زعمٌ باطل، لا يستند إلى دليل ولا شبه دليل. وقد جاءَ في الروايات الصحيحة أنها نزلت في واقعة أحد، لعتاب أصحاب رسول الله ﷺ على ما صدر منهم، وأنها ليست من كلام أبي بكر. وذلك أنه لما أصيب المسلمون في غزوة أحد بما أصيبوا به، وكسرت رباعيَّة[٢] النبي ﷺ وشجَّ[٣] وجههُ الشريف، وجحشت[٤] ركبته، وشاع بين المقاتلة أن رسول الله ﷺ قد قتل. هنالك قال بعض المسلمين: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبيّ فيأخُذ لنا أماناً من أبي سفيان. وبعضهم جلسوا وألقوا بأيديهم. وقال أناس من المنافقين: إن كان محمد قد قتل، فالحقوا بدينكم الأول. فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: إن كان محمد قتل، فإن رب محمد لم يقتل. وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء، (يعني المسلمين) وأبرأ إليك مما قال هؤلاء (يعني المنافقين)، ثم شدَّ بسيفه فقاتل حتى قتل رضي الله عنه.

وروي أن أول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك فقد ورد أنه قال: عرفت عينيه تحت المغفر تُزْهِران، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين: أبشروا! هذا رسول الله ﷺ. فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه رضي الله عنهم يُنافحون عنه. ثم لام النبي ﷺ أصحابه على الفرار. فقالوا: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأبنائنا. أتانا الخبر أنك قُتلت، فرُعِبَتْ قلوبنا، فولّينا مدبرين، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾[٥] إلخ من سورة آل عمران.

والظاهر أن هؤلاء الطاعنين بزيادة هذه الآية وأنها من كلام أبي بكر، يعتمدون فيما طعنوا على ما كان من عمر يوم وفاة رسول الله ﷺ، ومن ردِّ أبي بكر عليه بهذه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.
(٢) الرباعية: هي السن التي بين الناب والثنية. (م).
(٣) شج الوجه: جرحه. (م).
(٤) جحش الركبة: خدشها (م).
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

الآية، فزعموا أنها من كلام أبي بكر، وما هي من كلام أبي بكر. إنما هي من كلام رب العزة، أنزلها قبل وفاة الرسول ﷺ ببضع سنين، والمسلمون جميعاً ـ ومنهم أبو بكر وعمر ـ يحفظونها ويعرفونها. غير أن منهم من ذهل عنها كعمر، لهول الحادث وشدة الصدمة، وتصدُّع قلبه بموت رسول الرحمة وهادي الأمة ﷺ.

وكان من آثار ذلك أن عمر رضي الله عنه غفل عن هذه الآية يوم تُوفي رسول الله ﷺ فقام يومئذٍ وقال: «إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي. وإن رسول الله ﷺ ما مات. ولكنه ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: مات. والله ليرجعنَّ رسول الله ﷺ كما رجع موسى فَلَيُقَطِّعَنَّ أيديَ رجالٍ وأرجلهم، زعموا أن رسول الله ﷺ مات».

هنالك نهض أبو بكر ينقذ الموقف فقال: «على رِسلك يا عمر أنْصِت، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله ، الله حي لا يموت. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى آخرها: قال الرواي: فوالله، لكأنَّ الناسَ لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلا أبو بكر يومئذٍ، فأخذ الناس من أبي بكر. وقال عمر: ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعَقِرْتُ[1] حتى وقعت على الأرض، ما تحملُني رِجْلايَ وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات» اهـ.

وهذه الآية ـ كما ترى ـ لا يشم منها رائحة أنها من كلام أبي بكر، بل هي تحمل في طيّها أدلة كونها من كلام الله، وأن الصحابة يعلمون أنها من كلام الله، نزلت قبل أن ينزل بهم هذا الخطب الفادح ببضع سنين. ولكن ما الحيلة فيمن أعماهم الهوى والتعصُّب؟ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[2].

خامساً: أن ما ادَّعوه من أن آية ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[3] من كلام

---

(١) قال في المختار: «والعَقَر بفتحتين: أن تُسْلِمَ الرجلَ قوائمُهُ فلا يستطيع أن يقاتل من الفرق والدهش. وبابه طرب. ومنه قول عمر رضي الله عنه: فعَقِرْتُ حتى خَرَرْتُ إلى الأرض» اهـ (م).

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

عمر، مردودٌ أيضاً بمثل ما رددنا به زعمهم السابق في آية «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ» الخ. بل زعمهم هذا أظهر في البطلان، لأن الثابت عن عمر أنه قال للنبي ﷺ «لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى» فنزلت: «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»[١] في سورة البقرة. وهناك فرق بين كلمة عمر في تمنِّيه الذي هو سبب النزول، وبين كلمة القرآن النازلة بذلك السبب، فأنت ترى أن الآية جاء فيها الفعل بصيغة الأمر ولم يقرن بلفظ «لو». أما تَمَنِّي عمر فجاء الفعل فيه بصيغة الماضي وقرن بلفظ «لو». وتحقيق القرآن أمنيَّةً أو أمنياتٍ لعمر، لا يدل على أن ما نزل تحقيقاً لهذه التمنيات يعتبر من كلام عمر. بل البعد بينهما شاسع، والبون بعيد.

الشبهة الثالث:

يزعم بعض غُلاة الشيعة أن عثمان ومن قبله أبو بكر وعمر أيضاً حرَّفوا القرآن، وأسقطوا كثيراً من آياته وسوره. ورووا عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله: أن القرآن الذي جاء به جبريل إلى محمد ﷺ كان سبعة عشر ألف آية[٢]. وروى محمد بن نصر عنه أنه قال: كان في سورة «لم يكن»[٣] اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم. وروى محمد بن جهم الهلالي وغيره عن أبي عبد الله أن لفظ ﴿أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾[٤] في سورة النحل ليس كلام الله، بل هو محرف عن موضعه، وحقيقة المنزل «أئمة هي أزكى من أئمتكم». ومنهم من قال: إن القرآن كانت فيه سورة تسمى سورة الولاية وأنها أُسقطت بتمامها، وأن أكثر سورة الأحزاب سقط؛ إذ أنها كانت مثل سورة الأنعام، فأسقطوا منها فضائل أهل البيت. وكذلك ادعوا أن الصحابة أسقطوا لفظ «وَيْلَكَ» من قبل ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[٥] وأسقطو لفظ «عَنْ وِلايَةِ عليّ» من بعد ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ۝٢٤﴾[٦] وأسقطوا لفظ «بعليّ بن أبي طالب» من بعد ﴿وَكَفَى اللَّهُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب: ٣٢، وأبو داود، حروف: ١؛ ومسند الدارمي مناسك: ٣٣.

(٢) مع العلم بأن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ومئتا آية وكسور كما يأتي. (م).

(٣) وهي سورة البينة.

(٤) سورة النحل: الآية: ٩٢.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

(٦) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[١] وأسقطوا لفظ «آل محمّد» من بعد: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا﴾[٢] إلى غير ذلك.

فالقرآن الذي بأيدي المسلمين اليوم شرقاً وغرباً، أشدُّ تحريفاً عند هؤلاء الشيعيين من التوراة والإنجيل، وأضعف تأليفاً منهما وأجمع للأباطيل! ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾[٣].

ونقض هذه الشبهة بما يأتي:

أولاً: أنها اتهامات مجردة عن السند والدليل، وكانت لا تستحق الذكر لولا أن ردَّدها بعض الملاحدة، وربما يخدع بها بعض المفتونين. ويكفي في بطلانها أنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يقيموا عليها برهاناً ولا شبه برهان.

والدعاوَى ما لم يُقيموا عليها ... بَيِّنَاتٍ، أبناؤها أدْعِيَاءُ

ولكن هكذا شاءَت حماقتهم وسفاهتهم! ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝١٨﴾[٤].

ثانياً: أن بعض علماء الشيعة أنفسهم تبرأ من هذا السخف، ولم يُطق أن يكون منسوباً إليهم وهو منهم، فعزاه إلى بعض من الشيعة جمح بهم التفكير وغاب عنهم الصواب. قال الطبرسي[٥] في مجمع البيان ما نصه: «أما الزيادة فيه ـ أي القرآن ـ فمجمع على بطلانها. وأما النقصان فقد روي عن قوم من أصحابنا وقوم من الحشوية. والصحيح خلافه. وهو الذي نصره المرتضى، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء» اهـ.

وقال الطبرسي أيضاً في مجمع البيان ما نصه: «أما الزيادة في القرآن فمجمع على بطلانها، وأما النقصان فهو أشد استحالة. ثم قال: إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٠.
(٤) سورة الحج، الآية: ١٨.
(٥) الطبرسي من رؤساء الشيعة. وكتابه مجمع البيان هو المرجع عندهم (م).

بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة، فإن العناية اشتدَّت، والدواعي توفَّرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حد لم يبلغه شيء فيما ذكرناه، لأن القرآن مفخرة النبوة، ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية، وعلماءُ المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيَّراً أو منقوصاً، مع العناية الصادقة والضبط الشديد؟» اهـ.

ثالثاً: أن التواتر قد قام، والإجماع قد انعقد، على أن الموجود بين دفَّتي المصحف كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير ولا تبديل. والتواتر طريق واضحة من طرق العلم. والإجماع سبيل قويم من سبل الحق. ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾[1].

رابعاً: أن الإمام عليَّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ـ وهو الذي يزعمون أنهم يناصرونه ويتشيعون له بهذه الهذَيانات ـ صحَّ النقل عنه بتحبيذ جمع القرآن، على عهد أبي بكر ثم عهد عثمان. ولعلك لم تنس أنه قال في جمع أبي بكر ما نصه: «أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله» وكذلك قال في جمع عثمان ما نصُّه: «يا معشرَ الناس اتَّقوا الله، وإياكم والغلوَّ في عثمان، وقولكم: حَرَّاقُ مصاحف، فوالله ما حرقها إلاَّ عن ملإٍ منا أصحابَ رسول الله ﷺ» وقوله: «لو كنت الواليَ وقتَ عثمانَ لفعلتُ في المصاحفِ مثلَ الذي فعل عثمانُ» وبهذا قطع الإمام ألسنة أولئك المفترين، وردَّ كيدهم في نحورهم مخذولين. فأين يذهبون؟ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾[2]؟.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾[3].

خامساً: أن الخلافة قد انتهت إلى عليّ كرم الله وجهه بعد أبي بكر وعمر

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨.

وعثمان، فماذا منعه أن يجهر وقتئذٍ بالحق في القرآن، وأن يصحح للناس ما أخطأ فيه أسلافه على هذا الزعم والبهتان؟ مع أنه الإمام المعصوم في عقيدة أولئك المبطلين، ومع أنه كان من سادات حفظة القرآن، ومن أشجع خلق الله في نصرة الدين والإسلام. ولقد صار الأمر بعده إلى ابنه الحسن رضي الله عنه، فماذا منعه الآخر من انتهاز هذه الفرصة كي يظهر حقيقة كتاب الله للأُمة! هذه مزاعم لا يقولها إلا مجنون، ولا يصدِّق بها إلا مأفون!!

الشبهة الرابعة:

يقولون: ورد أن عبد اللَّه بن مسعود قال: «يا معشر المسلمين. أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف، ويتولاَّه رجلٌ ـ والله ـ لقد أسلمتُ وإنه لفي صُلبِ رجل كافر؟» اهـ.

قالوا: وهو يعني بهذا الرجل زيدَ بن ثابت، ويريد بذلك الكلام الطعن على جمع القرآن. وهذا يدلُّ بالتالي على أن القرآن الموجود بين أيدينا ليس موضع ثقة، ولم يبلغ حدَّ التواتر.

ونقض شبهتهم هذه: أولاً بأن كلام ابن مسعود هذا ـ إذا صحَّ ـ لا يدل على الطعن في جمع القرآن، إنما يدل على أنه كان يرى في نفسه أنه هو الأولى أن يسند إليه هذا الجمع، لأنه كان يثق بنفسه أكثر من ثقته بزيد في هذا الباب. وذلك لا ينافي أنه كان يرى في زيد أهلِّيةً وكفاية للنهوض بما أُسند إليه، وإن كان هو في نظر نفسه أكفأ وأجدر. غير أن المسألة تقديرية. ولا ريب أن تقدير أبي بكر وعمر وعثمان لزيد أصدقُ من تقدير ابن مسعود له. كيف وقد عرفت فيما سبق مجموعة المؤهلات والمزايا التي توافرت فيه، حتى جعلته الجدير بتنفيذ هذه الغاية السامية. أضف إلى ذلك أن عثمان ضمَّ إليه ثلاثة، ثم كان هو وجمهور الصحابة مُشْرفين عليهم مراقبين لهم، وناهيك في عثمان أنه كان من حُفاظ ومعلمي القرآن!.

وخلاصة هذا الجواب أن اعتراض ابن مسعود ـ على فرض صحَّته ـ كان منصباً على طريقة تأليف لجنة الجمع، لا على صحة نفس الجمع. مع أن كلمة ابن مسعود السالفة لا تدل على أكثر من أنه كان يَكْبُرُ زيداً بزمن طويل، إذ كان عبد اللَّه مسلماً وزيدٌ لا يزال ضميراً مستتراً في صُلب أبيه. وليس هذا بمطعن في زيد، فكم ترك الأول للآخر. ولو كان الأمر بالسن لاختل كثيرٌ من نظام الكون. ثم إن كلمة ابن مسعود ربما

يفهم منها الطعن في زيد من ناحية أن أباه كان كافراً، ولكن هذا ليس بمطعن، فكثير من أكابر الصحابة كانوا في مبدأ أمرهم كفاراً، وخرجوا من أصلاب آباء كافرين. والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] ويقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[2].

ثانياً: أننا إذا سلمنا صحة ما نقل عن ابن مسعود، وسلمنا أنه أراد الطعن في صحة جمع القرآن، لا نسلم أنه دام على هذا الطعن والإنكار، بدليل ما صح عنه أنه رجع إلى ما في مصحف عثمان، وحرق مصحفه في آخرة الأمر، حين تبين له أن هذا هو الحق، وبدليل ما صحَّ عنه من قراءة عاصم عن زُرعة، وقد تقدم.

ثالثاً: أن كلام ابن مسعود هذا ـ على تسليم صحته وأنه أراد به الطعن في صحة الجمع، وأنه دام عليه ولم يرجع عنه ـ لا نسلم أنه يدل على إبطال تواتر القرآن فإن التواتر كما أسلفنا يكفي في القطع بصحة مرويه أن ينقل عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب بشروطه، وليس من شروطه ألا يخالف فيه مخالف حتى يقدح في تواتر القرآن أن يخالف فيه ابن مسعود أو غير ابن مسعود، ما دام جمٌّ غفير من الصحابة قد أقروا جمع القرآن على هذا النحو في عهد أبي بكر مرةً، وفي عهد عثمان مرةً أخرى.

الشبهة الخامسة:

يقولون: كيف يكون القرآن متواتراً، مع ما يروى عن زيد بن ثابت أنه قال في الجمع على عهد أبي بكر ما نصه: «فقمت فتتبعتُ القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع غيره، وهما «لقد جاءكمْ رسولٌ» إلى آخر السورة[3]. ثم كيف يكون القرآن متواتراً، مع ما يروى أيضاً عن زيد بن ثابت أنه قال في الجمع على عهد عثمان ما نصه[4]: فقدتُ آيةً من سورة الأحزاب كنتُ أسمعُ رسول الله ﷺ يقرؤها، لم أجدها مع أحدٍ إلاَّ مع خزيمة بن ثابتٍ الأنصاريِّ الذي جعلَ رسول الله ﷺ شهادتَه بشهادة

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.
(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: ٣.
(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن باب: ٣.

رجلين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1]؟

والجواب على هذه الشبهة أولاً: أن كلام زيد بن ثابت هذا، لا يبطل التواتر وبيان ذلك أن الآيتين ختام سورة التوبة، لم تثبت قرآنيتهما بقول أبي خزيمة وحده. بل ثبتت بأخبار كثرةٍ غامرةٍ من الصحابة عن حفظهم في صدورهم، وإن لم يكونوا كتبوه في أوراقهم. ومعنى قول زيد: «حتى وجدتُ من سورة التوبة آيتين لم أجدهمَا عند غيرهِ» أنه لم يجد الآيتين اللتين هما ختام سورة التوبة مكتوبتين عند أحد إلا عند أبي خزيمة، فالذي انفرد به أبو خزيمة هو كتابتهما لا حفظهما، وليست الكتابة شرطاً في المتواتر، بل المشروط فيه أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ولو لم يكتبه واحد منهم، فكتابة أبي خزيمة الأنصاري كانت توثقاً واحتياطاً فوق ما يطلبه التواتر ويقتضيه، فكيف نقدح في التواتر بانفراده بها؟!

ثانياً: يقال مثل ذلك فيما روي عن زيد في آية سورة الأحزاب: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ» فإن معناه أن زيداً لم يجدها مكتوبة عند أحد إلا عند خزيمة بن ثابت الأنصاري. ويدلُّ على أن هذا هو المعنى الذي أراده زيد بعبارته تلك، قولُ زيد نفسه فقدتُ آيةً من سورة الأحزاب إلخ، فإن تعبيره بلفظ «فقدتُ» يشعر بأنه كان يحفظ هذه الآية، وأنها كانت معروفة له، غير أنه فقد مكتوبها، فلم يجده إلا مع خزيمة، وإلا فمن الذي أنبأ زيداً أنه فقد آية؟

ثالثاً: أن كلام زيد فيما مضى من ختام التوبة وآية الأحزاب، لا يدل على عدم تواترهما، حتى على فرض أنه يريد انفراد أبي خزيمة وخزيمة بذكرهما من حفظهما. غاية ما يدل عليه كلامه، أنهما انفردا بذكرهما ابتداء، ثم تذكر الصحابة ما ذكراه، وكان هؤلاء الصحابة جمعاً يؤمن تواطؤهم على الكذب، فدونت تلك الآيات في الصحف والمصحف، بعد قيام هذا التواتر فيها.

الشبهة السادسة:

يقولون: كانت الآيات تكتب على الحجارة وسعف النخل والعظام خوفاً عليها من الضياع، وبقي جانب كبير منها محفوظاً في صدور الرجال. وقد نشأ عن ذلك عدة

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

مشاكل يعتبرها الباحثون فيه كافيةً لإثبات كون القرآن الحالي لا يحتوي جميع الآيات التي نطق بها محمد، وبعضها يختلف في القراءة واللفظ والمعنى. ويقولون بعبارة أخرى: إنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالي حاوياً لجميع ما أنزل، إذ من المؤكد أنه ذهب منه جانب ليس بقليل، وأنسي منه جانب آخر، قال ابن عمر: «لا يقولنَّ أحدُكم قد أخذتُ القرآن كله. قد ذهب منه كثيرٌ. ولكن ليقل: قد أخذتُ ما ظهرَ منهُ». فهذا يثبت أن القرآن الحالي لا يتضمن جميع ما كان مسطوراً في اللوح المحفوظ. ولا هو طبق ما نطقت به شفتا محمد، سيما أن في آيات عديدة منه اختلافاتٍ مدهشة، ولا يعلم نصها الصحيحَ أحدٌ» اهـ.

وننقض هذه الشبهة بما يأتي:

أولاً: أن كتابة القرآن على الحجارة والسعف والعظام، وبقاء جانب كبير منه محفوظاً في صدور الرجال، لا يلزم منه مشكلة واحدة فضلاً عن عدَّة مشاكل، إنما هو وهمٌ من الأوهام تخيلوه فخالوه، وبدليل أنهم لم يذكروا سندهم فيما ذهبوا إليه من هذا الشطط.

ثانياً: أن الحجارة وسعف النخل والعظام التي كتب عليه بعض آيات القرآن لم تكن بحيث يمكن أن يتخيل أولئك الطاعنون أو يخيلوا إلى الناس أنها لا تصلح للكتابة عليها، بل كانت العرب لبداوتها ولبعدها عن وسائل الحضارة والعمران، تصطفي من أنواع الحجارة الموفورة عندها نوعاً رقيقاً يكون كالصحيفة يصلح للكتابة وللبقاء، أشبه بما نراه اليوم من الكتابة الجميلة المنقوشة على صفحات مصنوعة مما نسميه (الجبس). وكذلك سعف النخل يكشطون الخوص عنه، ويكتبون في الجزء العريض منه بعد أن يصقلوه ويهذبوه فيكون أشبه بالصحيفة. وقل مثل هذا في العظام، بدليل أن الروايات الواردة في ذلك نصت على نوع خاص منه وهو عظام الأكتاف، وذلك لأنها عريضة رقيقة ومصقولة صالحة للكتابة عليها بسهولة.

ثالثاً: أن استنتاجهم من هذا كون القرآن الحالي لا يحتوي جميع الآيات التي نطق بها محمد، استنتاجٌ معكوس، وفهمٌ منكوس، لأن كتابة القرآن وحفظه في آنٍ واحد في صدور آلاف مؤلفة من الخلق، أدعى إلى بقاء ذلك القرآن، وأدلُّ على أنه لم تفلت منه كلمة ولا حرف. كيف وأحد الأمرين من الكتابة والحفظ كافٍ في هذه الثقة؟

فما بالك إذا كان القرآن كله مكتوباً بخطوط أشخاص كثيرين، ومحفوظاً في صدور جماعات كثيرين!.

رابعاً: قولهم: «وبعضها يختلف في القراءة واللفظ والمعنى» إن أرادوا به الطعن في تعدُّد القراءات واختلاف وجوه الأداء، فقد سبق في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف ما يكفيك في الرد عليهم، وسيأتيك في مبحث القراءات ما يزيدك تنوُّراً في هذا الموضوع، وإن أرادوا به شيئاً آخر فعليهم البيان. وحسبك أن تعرف أن اختلاف حروف القرآن أمر تقتضيه الحكمة، ويوجبه عموم الدعوة الإسلامية. خصوصاً لمن شافههم الرسول عليه الصلاة والسلام، وهم على اختلاف قبائلهم، وتنوُّع لهجاتهم، وتباين وجوه نطقهم، عربٌ تؤلف بينهم العروبة الواحدة، ويجمعهم اللسان العربي العام. فأيُّ عيب على القرآن إذا اختلفت حروف أدائه، وكيفيات النطق بكلماته، ليسع القبائل العربية جميعاً، وليتسنَّى لها تلاوة ألفاظه، وتفهُّم معانيه؟ ولئلا يقول أحد منها: لو جاء القرآن بلغتنا لكان لنا معه شأن، ولأتينا بمثله، وعارضنا بلاغته! ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

خامساً: قولهم إنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالي حاوياً لجميع ما أُنزل إلخ، كلامٌ مجردٌ من السند والحجة، لا يستحق الرد، فإن استندوا فيه إلى ما سبق فقد استندوا إلى أوهن من بيت العنكبوت، وقد عرفت وجوه الوهن التي فيه. وإن استندوا إلى ما ذكروه بعد مما نسبوه لابن عمر، فقد زادوا الطينَ بِلَّة؛ لأن هذه النسبة إلى ابن عمر نسبة خاطئة كاذبة، وعلى فرض صحتها فهي موقوفة وليست بمرفوعة إلى النبي ﷺ، وعلى فرض رفعها فهي معارضة للأدلة القاطعة المتوافرة في تواتر القرآن وسلامته من التغيير والزيادة والنقصان، ومعارض القاطع ساقط مهما كانت قيمة سنده في خبر الواحد.

سادساً: أن نهايتهم التي ختموا بها هذه الشبهة أقبح من بدايتهم، لأنهم رتَّبوها على تلك الأكاذيب والمهاترات، ثم زادوا فيها اتهاماً جديداً مجرداً من السند والحجة أيضاً، وهو أن في آيات عديدة من القرآن اختلافات مدهشة، ولا يعلم نصها الصحيح أحد، وهكذا خرجوا من اتهام إلى اتهام، واحتجوا بكذب على كذب، وهانت عليهم

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

كرامتهم وعقولهم، فقالوا ما شاء لهم الهوى والتعصب إلى هذا الحد. وأنت خبير بأن القرآن الحالي وصل إلينا محفوظاً من كل عبث كما نطق به الرسول ﷺ وكما خطَّه الله تعالى بقلمه في لوحه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾[1].

أما زعمهم أن فيه اختلافات مدهشة، فقد علمت في مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف مدى اختلاف وجوه القراءات وحكمته، وأنه لا يؤدي إلى تخاذل وتناقض حتى يكون مدهشاً.

وأما نصوص القرآن الصحيحة فقد علمها وحفظها جمعٌ يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة من طبقات الأمة. من لدن رسول الله ﷺ إلى اليوم.

فادعاء هؤلاء الجهلة الدجالين أنه لا يعلم نصوص القرآن الصحيحة أحد، ادِّعاء مفضوح، وكذب مكشوف.

قال صاحب مُسَلَّم الثبوت ـ وهو من أشهر الكتب في أصول الفقه الإسلامي ـ: «ما نُقِلَ آحاداً فليس بقرآن قطعاً، ولم يُعرف في هذا خلافٌ لواحد من أهل المذاهب. والدليل على ذلك أن القرآن مما تتوافر الدواعي على نقله لتضمُّنه التحدِّي، ولأنه أصل الأحكام باعتبار المعنى واللفظ جميعاً، ولذلك عُلم جهد الصحابة في حفظه بالتواتر القاطع.

وكل ما تتوافر الدواعي على نقله ينقل متواتراً عادة، فوجوده ملزوم التواتر عند الكل عادة، فإذا انتفى اللازم وهو التواتر انتفى الملزوم قطعاً. والمنقول آحاداً ليس متواتراً فليس قرآناً اهـ بتصرف قليل.

خطٌ منيع من خطوط الدفاع عن الكتاب والسنة أو الدواعي والعوامل التي توافرت في الصحابة حتى استظهروا القرآن والحديث النبوي وتثبتوا فيهما

إن الناظر في الشبهات السالفة وأمثالها، يبدو له في وضوح أن القوم يحاولون الطعن في القرآن عن طريق النيل من الصحابة، فطوراً يقولون: إن الصحابة حين جمع

(١) سورة فصلت، الآيتان: ٤١ ـ ٤٢.

القرآن لم يكونوا يستظهرونه، وإن الذين استظهروه منهم ماتوا قبل جمعه واستشهدوا. وطوراً يقولون: إن الصحابة لم يتثبَّتوا في جمع القرآن، بل حطبوا فيه بليل، وزادوا فيه ونقصوا منه ما شاؤوا.

وقد كثرت هجمات أعداء الإسلام من هذه الناحية كثرةً فاحشة، بحيث إذا استقصينا شبهاتهم كلها ضاق بنا نطاق هذا التأليف، وخرجنا جملةً من الجو العلمي الهادىء اللذيذ، إلى ميدان صاحب بالقيل والقال، والصيال والجدال، والدفاع والنضال.

وكذلك كثرت هجمات أعداء الإسلام على السنة النبوية من ناحية الصحابة أيضاً فتارةً يستكثرون عليهم أن يكونوا قد حفظوا الحديث الشريف وهو موسوعات كبيرة، وتارةً يتهمونهم بالخيانة والتزيُّد وعدم التثبُّت والتحرِّي، ويبنون على ذلك مفترياتٍ ما أنزل الله بها من سلطان.

يريدون بهذه الاتهامات الجريئة للصحابة، أن يزعْزِعوا ثقة الناس بكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ، حتى يفتنوا المسلمين عن دينهم، وحتى يقيموا الحواجز والعواثير في طريق غير المسلمين، مخافة أن يجتذبهم الإسلام إليه بمحاسنه الأخَّاذة، وقوَّته المحولة، وتعاليمه الوضَّاءة!.

وبرغم أن شبهات القوم كلها متشابهة، وطرق دفعها هي الأخرى متشابهة، فإن واجب الحيْطة والحذر يقتضينا بعد ما تقدَّم أن نقيم خطاً منيعاً من خطوط الدفاع عن الكتاب والسنة، وأن نؤلِّف هذا الخط من جبهتين قويتين، الجبهة الأولى تُطاول السماء بتجْلية الدواعي والعوامل التي توافرت في أصحاب رسول الله ﷺ حتى جعلت منهم كثرةً غامرة يحفظون القرآن والحديث، وينقلونهما نقلاً متواتراً مستفيضاً. والجبهة الثانية تُفاخر الجوزاء بنظم الدواعي والعوامل التي توافرت فيهم رضوان الله عليهم، حتى جعلتهم يتثبَّتون أبلغ تثبُّت وأدقَّه في القرآن وجمع القرآن وكل ما يتصل بالقرآن، وفي الحديث الشريف وكل ما يتصل بالحديث الشريف.

وإني استمنح الله فتوحاً وتوفيقاً في هذه المحاولة الجليلة ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾[1].

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

١ ـ الجبهة الأولى أو الدواعي والعوامل في حفظ الصحابة للكتاب والسنة ونقلهم لهما

ولنبدأ بشرح العوامل والدواعي التي يسَّرت للصحابة حفظ الكتاب والسنة ونقلهما، حتى لا يستبعد ذلك عليهم أحد، ولا يطعن في الكتاب والسنة عن هذا الطريق أحد:

العامل الأول

أنهم كانوا أُميين لا يعرفون القراءة؛ ولا يحذِقون الخط والكتابة، اللَّهم إلا نَزْرٌ يسيرٌ لا يُصاغ منهم حكم على المجموع. وترجع هذه الأمية السائدة فيهم إلى غلبة البداوة عليهم، وبُعْدِهم عن أسباب المدنية والحضارة، وعدم اتصالهم اتصالاً علمياً وثيقاً بالأمتين المتحضِّرتين في العالم لذلك الحين: أمة الفرس في الشرق، وأمة الروم في الغرب. ومعلوم أن الكتابة والقراءة وامّحاء الأمية في أية أمة، رهينٌ بخروجها من عهد السذاجة والبساطة، إلى عهد المدنية والحضارة.

ثم إن هذه الأمية تجعل المرء منهم لا يعول إلا على حافظته وذاكرته فيما يهمه حفظه وذكره. ومن هنا كان تعويل الصحابة على حوافظهم يقدحونها في الإحاطة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لأن الحفظ هو السبيل الوحيدة أو الشبيهة بالوحيدة إلى إحاطتهم بهما.

ولو كانت الكتابة شائعة فيهم، لاعتمدوا على النقش بين السطور، بدلاً من الحفظ في الصدور.

نعم. عمل الرسول على كتابة القرآن، وكان له كُتَّابٌ يكتبون الوحي كما سبق، وكان بعض الصحابة يكتبون القرآن لأنفسهم كذلك، غير أن هؤلاء وهؤلاء كانوا فئةً قليلة بجانب الجمِّ الغفير من سواد الأُمة الكثير. ولعلك لم تنس أن كتابة القرآن في عهد الرسول كان الغرض منها زيادة التوثُّق والاحتياط للقرآن الكريم، بتقييده وتسجيله بالنقش، فوق تقييده وتسجيله بالحفظ.

أما السنة النبوية فقد نهى النبي ﷺ أصحابه عن كتابتها أول الأمر مخافة اللبس بالقرآن، إذ قال عليه الصلاة والسلام: «لاَ تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ ٱلْقُرْآنِ

فَلْيَمْحُهُ، وَحَدِّثُوا عَنِّي فَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» رواه مسلم في صحيح عن أبي سعيد الخدري[1].

نعم. خشي الرسول ﷺ أن يختلط القرآن بالسنَّة، إذا هم كتبوا السنة كما كانوا يكتبون القرآن، أو أن تتوزَّع جهودهم وهي لا تحتمل أن يكتبوا جميع السنة وجميع القرآن فقَصَرَهُم على الأهم أولاً وهو القرآن، خصوصاً إذا لاحظنا أن أدوات الكتابة كانت نادرةً لديهم إلى حدٍّ بعيد، حتى كانوا يكتبون في اللِّخاف والسَّعَف والعظام كما علمت.

فرحمةً بهم من ناحية، وأخذاً لهم بتقديم الأهم على المهم من ناحية ثانية، وحفظاً للقرآن أن يشتبه بالسنة إذا هم كتبوا السنة بجانب القرآن نظراً إلى عزَّة الورَق وندرة أدوات الكتابة، رعايةً لهذه الغايات الثلاث نهى الرسول عن كتابة السنة.

أما إذا أُمن اللبس، ولم يُخش الاختلاط، وكان الأمر سهلاً على الشخص، فلا عليه أن يكتب الحديث الشريف، كما يكتب القرآن الكريم. وعلى ذلك تُحمل الأحاديث الواردة في الإذن بكتابة السنة آخر الأمر، والواردة في الإذن لبعض الأشخاص كعبد الله بن عَمْرو (رضي الله عنه). ولهذا الموضوع مبحثٌ خاصٌ به فاطلبه إن شئت في علوم الحديث.

وأيًّا ما تكن كتابة القرآن والسنة النبوية، فإن التعويل قبل كل شيء كان على الحفظ والاستظهار، ولا يزال التعويل حتى الآن على التلقِّي من صدور الرجال، ثقةً عن ثقة، وإماماً عن إمام، إلى النبي ﷺ.

غير أن الرجل الأمي والأمة الأمية يكونان أسبق من غيرهما إلى الحفظ، للمعنى الذي أسلفناه لك.

العامل الثاني

أن الصحابة كانوا أمة يُضرب بها المثل في الذكاء والألمعية، وقوَّة الحافظة وصفاء الطبع، وسيلان الذهن وحدَّة الخاطر! وفي التاريخ العربي شواهد على ذلك

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، حديث ٧٢.

يطول بنا تفصيلها، ولعلها على بالٍ منك. حتى لقد كان الرجل منهم ربما يحفظ ما يسمعه لأول مرة مهما كثر وطال، وربما كان من لغة غير لغته، ولسانٍ سوى لسانه، وحسبك أن تعرف أن رؤوسهم كانت دواوين شعرهم، وأن صدورهم كانت سِجِلَّ أنسابهم، وأن قلوبهم كانت كتاب وقائعهم وأيامهم! كل أولئك كانت خصائص كامنة فيهم وفي سائر الأمة العربية من قبل الإسلام، ثم جاء الإسلام فأرهف فيهم هذه القُوى والمواهب، وزادهم من تلك المزايا والخصائص بما أفاد طبعهم من صَقْل، ونفوسَهم من طُهْر وعقولَهم من سُمُوٌ، خصوصاً إذا كانوا يسمعون لأصدق الحديث وهو كتاب الله، ولخير الهَدْي وهو هَدْي محمد ﷺ.

العامل الثالث

بساطة هذه الأمة العربية، واقتصارها في حياتها على ضروريَّات الحياة من غير مَيْل إلى التَّرف، ولا إنفاق جهد أو وقت في الكماليات. فقد كان حسب الواحد منهم لُقَيْمات يُقِمْنَ صُلبه، وكان يكفيه من معيشته ما يذكره شاعرهم في قوله: ـ

وَمَا العيشُ إلاَّ نَوْمَةٌ وَتَبَطُّحٌ وَتَمْرٌ عَلَى رَأْسِ النَّخِيلِ وَمَاءُ

ومثلك يعلم أن هذه الحياة الهادئة الوادعة، وتلك العيشة الراضية القاصدة، تُوفِّر الوقت والمجهود، وترضي الإنسان بالموجود، ولا تشغل البال بالمفقود. ولهذا أثره العظيم في صفاء الفكرة وقوَّة الحافظة وسيلان الأذهان، خصوصاً أذهان الصحابة في اتِّجاهها إلى حفظ القرآن وحديث النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك على حد قول القائل: ـ

«... فصادفَ قلباً خالياً فتمكَّنا»(١).

العامل الرابع

حُبُّهم الصادقُ لله ولرسوله، حبًا ملك مشاعرهم، واحتلَّ مكان العقيدة فيهم. وأنت تعرف من دراسة علم النفس، أن الحبَّ إذا صدق وتمكن، حمل المحبَّ حملاً

---

(١) هذا عجز بيت صدره:

(أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى)

وهو من كلام المجنون.

على ترسُّم آثار محبوبه، والتلذُّذ بحديثه، والتنادُر بأخباره، ووَعْي كل ما يصدر عنه ويبدُر منه. ومن هنا كان حب الصحابة لله ورسوله، من أقوى العوامل على حفظهم كتابَ الله وسنةَ رسوله ﷺ على حدِّ قول القائل:

لهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ
لهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ يُسْتَضَاءُ بِه وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِ
إِذَا شَكَتْ مِن كَلَالِ السَّيْرِ وَاعَدَهَا رُوحَ القُدُومِ فَتَحْيَا عِنْدَ مِيعَادِ

أما حبُّ الصحابة العميق لله تعالى، فلا يحتاج إلى شرح وبيان، ولا إلى إقامة دليل وبرهان، فهم خير القرون بنصِّ حديث الرسول ﷺ «خيرُ القُرُونِ قَرْنِي ثمَّ الذين يَلُونَهُم»[1]، وهم الذين بذلوا نفوسهم ونفائسهم رخيصةً في سبيل رضاه، وهم الذين باعوا الدنيا بما فيها يبتغون فضلاً من الله، وهم الذين حملوا هادية الإسلام إلى الشرق والغرب، وأتوا بالعجب العُجاب في نجاح الدعوة الإسلامية بالحَضر والبدْو، وكانوا أحرياء بامتداح الله إياهم غير مرة في القرآن، وبثناءِ الرسول ﷺ عليهم في أحاديث عظيمة الشأن!

وأما مظاهر حُبِّهم للرسول ﷺ فما حكاه التاريخ الصادق عنهم من أنه ما كان أحدٌ يحب أحداً مثل ما كان يحب أصحاب محمدٍ محمداً. دَمُ الرجل منهم رخيص في سبيل أن يُفْدَى رسول الله ﷺ من شوكة يُشاكها في أسفل قدمه. وماء وضوئه يبتدرونه في اليوم الشديد البرد يتبرَّكون به، وأب الواحد منهم وأبناؤه من ألَدِّ أعدائه ما داموا يعادون محمداً، وحديث محمد موضع التنافس من رجالهم ونسائهم، حتى إذا أعيا الواحدَ منهم طِلاَبُهُ، تناوب هو وزميلٌ له الاختلاف إلى رسول الله ﷺ، على أن يقوم أحدهما بعمل الآخر عند ذَهابه، ويقوم الآخر برواية ما سمعه وعرفه من الرسول بعد إيابه[2].

وهذه وافدةُ النساء تقول لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله غَلَبَنَا عليكَ الرجالُ، فاجعلْ لنَا مِنْ نَفْسِكَ يوماً نأتيك فيه تعلمنا مِمَّا عَلَّمَكَ الله»[3] إلى غير ذلك من شواهد

(١) أخرجه البخاري في الشهادات: ٩. وأحمد: ١/٣٧٨.
(٢) انظر التناوب في طلب العلم من صحيح البخاري (م).
(٣) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، باب: ٩؛ وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، حديث: ١٥٢.

ومظاهر، تدلُّ على مبلغ هذا الحب السامي الشريف، ويرحم الله القائل: ـ

أَسَرتْ قُرَيْشٌ مُسْلِماً في غَزْوَةٍ ... فَمضى بِلاَ وَجَلٍ إلى السَّيَّافِ
سَأَلُوهُ: هل يُرضِيكَ أَنَّكَ سالِمٌ ... ولك النبيُّ فِدًى مِنَ الإتلافِ
فأجابَ كلاَّ. لا سَلِمْتُ من الرَّدى ... وَيُصَابَ أَنْفُ محمدٍ بِرُعافِ

ولقد كان من مظاهر هذا الحب ـ كما رأيت ـ تسابقُهم إلى كتاب الله يأخذونه عنه ويحفظونه منه. ثم إلى سُنَّته الغرّاء يحيطون بأقوالها وأفعالها وأحوالها وتقريراتها. بل كانوا يتفنَّنون في البحث عن هدْيه وخبره، والوقوف على صفته وشكله، كما تجد ذلك واضحاً من سؤال الحسن والحسين عن حِلْيَةِ رسول الله ﷺ وما أجيبا به من تَجْلِية تلك الصور المحمدية الرائعة، ورسمها بريشة المصوِّر الماهر، والصَّانع القادر، على يد أبيهما علي بن أبي طالب، وخالهما هند بن أبي هالة، رضي الله عنهم أجمعين[1].

العامل الخامس

بلاغة القرآن الكريم إلى حدٍّ فاق كل بيان، وأخرس كل لسان، وأسكت كل معارض ومكابر، وهدم كل مجادل ومهاتر، حتى قام ولا يزال يقوم في قم الدنيا معجزة من الله لحبيبه، وآية من الحق لتأييد رسوله. وبعد كلام الله في إعجازه وبلاغته، كلامُ محمد ﷺ في إشراقه وديباجته وبراعته، وجزالة ألفاظه وَسُمُوّ معانيه وهدايته. فقد كان ﷺ في إشراقه وديباجته وبراعته، وجزالة ألفاظه وَسُمُوّ معانيه وهدايته. فقد كان ﷺ أفصح الناس وأبلغ الناس، وكان العرب إلى جانب ذلك مأخوذين بكل فصيح بليغ، متنافسين في حفظ أجود المنظوم والمنثور. فمن هنا هَبُّوا هَبَّةً واحدة يحفظون القرآن، ويفهمون القرآن، ويعملون بالقرآن، وينامون ويستيقظون على القرآن. وكذلك السنة النبوية كانت عنايتهم بحفظها والعمل بها تلي عنايتهم بالقرآن الكريم يتناقلونها ويتبادرونها كما سمعت.

والكلام في أسرار بلاغة القرآن ووجوه إعجازه، وفي بلاغة كلام النبوة وامتيازه، وفي تنافس العرب في ميدان البيان، كل ذلك مما لا يحتاج إلى شرح ولا تبيان، فهذا

---

(١) انظر في ذلك ما يرويه محمد أبو عيسى الترمذي متفرقاً في كتاب الشمائل من طريق سفيان بن وكيع رضي الله عنهم (م).

كتاب الله ينطق علينا بالحق، ويتحدَّى بإعجازه كافَّة الخلق. وهذا بحر النبوة يفيض بالدراري واللآلىء ويزخر بالهدايات البالغة والحكم الغوالي. وهذا تاريخ الأدب العربي يسجِّل لأولئك العرب فوْقَهم في صناعة الكلام. وسَبْقَهم في حَلْبة الفصاحة كافة الأنام، وامتيازهم في تذوُّق أسرار البلاغة خصوصاً بلاغة القرآن!!

العامل السادس

الترغيب في الإقبال على الكتاب والسنة علماً وعملاً، وحفظاً وفهماً، وتعليماً ونشراً وكذلك الترهيب من الإعراض عنهما، والإهمال لهما.

نقرأ في القرآن الكريم قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[1]. فتأمَّل كيف قدَّم تلاوة القرآن على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؟ ونقرأ قوله جلَّ ذكره: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[2]. فانظر كيف حثَّ بهذا الأسلوب البارع على تدبُّر القرآن والتذكر والاتعاظ به؟ ونقرأ قوله عزَّ اسمه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾[3]. فتدبَّر كيف يكون وعيد مَنْ كتم القرآن وهدي القرآن؟.

ثم نقرأ في السنة النبوية قوله ﷺ: «ما اجتمعَ قَوْمٌ في بيتٍ مِنْ بُيُوتِ الله يتلونَ كتابَ الله ويَتَدَارَسُونَهُ بينهم إلا نَزَلَتْ عليهمُ السكينةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرحمةُ، وحَفَّتْهُمُ الملائكةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فيمن عندهُ». رواه[4] مسلم وأبو داود وغيرهما.

ونقرأ في صحيح البخاري ومسلم قوله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلَّمَهُ»[5].

---

(١) سورة فاطر، الآيتان: ٢٩ ـ ٣٠.
(٢) سورة صٓ، الآية: ٢٩.
(٣) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٩ ـ ١٦٠.
(٤) صحيح مسلم، الإمارة: ١٤٧؛ ومسند أحمد: ٢/ ٢٥٢.
(٥) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: ٢١.

ونقرأ لأبي داود والترمذي وابن ماجة قوله ﷺ: «عُرضت عليّ ذنوبُ أُمتي فلم أر ذنباً أعظمَ من سورة من القرآن أو آيةٍ أُوتيها رَجُلٌ ثم نسيها»[١].

أليس ذلك وأمثال ذلك ـ وهو كثير ـ يحفز الهمم ويحرك العزائم، إلى حفظ القرآن واستظهاره والمداومة على تلاوته، مخافةَ الوقوع في وعيد نسيانه. وهو وعيد كما سمعت شديد؟

أما السنة النبوية فقد جاء في شأنها عن الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٢]. وقوله سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٣]. وقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[٤]. وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[٥].

وجاء ترغيباً في السنة النبوية من الحديث الشريف قوله ﷺ: «نَضَّرَ الله امرأً سمع مِنَّا حديثاً، فأداه كما سمعه، فَرُبَّ مُبلَّغٍ أَوْعَى من سامع»[٦] وهو حديث متواتر، وقوله ﷺ في خطبة حجَّة الوداع: «ألا فليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ، فلعلَّ بعض من يَبلُغُهُ أن يكون أَوْعَى له من بعضِ من سمعهُ» رواه الشيخان[٧]. وجاء ترهيباً من الإعراض عن السنة، قوله ﷺ: «من رغب عن سُنَّتي فليس مني». رواه مسلم[٨] وقوله ﷺ: «ألا هل عسى رجلٌ يبلغه الحديث عني وهو مُتَّكِيءٌ على أريكته، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله تعالى، فما وجدنا فيه حلالاً اسْتَحْلَلْنَاهُ، وما وجدنا فيه حراماً حرَّمناه. وإن ما حرَّمَ

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة: ١١٦؛ سنن الترمذي، ثواب القرآن: ١٩.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.
(٥) سورة النساء، الآية: ٦٥.
(٦) رواه أبو داود في سننه، علم: ١٠، والترمذي في سننه، علم: ٧؛ وابن ماجة في المناسك: ٧٦؛ والدارمي في مسنده. مقدمة: ٢٤؛ وأحمد في مسنده ١/ ٤٣٧.
(٧) صحيح البخاري: كتاب العلم، باب ٩؛ والصيد: ٨، والأضاحي: ٥، والفتن: ٨. وصحيح مسلم، كتاب الحج، حديث: ٤٤٦.
(٨) صحيح مسلم، كتاب النكاح، حديث: ٥.

رسول الله ﷺ كما حرَّمهُ الله»[١] أخرجه أبو داود والترمذي. زاد أبو داود في أوله: «ألا إني أُوتيتُ الكتابَ ومثله معه». فأنت ترى في أمثال هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ما يحفز همه المؤمن الضعيف إلى الإقبال على روائع النبوة يستهديها، وبدائع النبي ﷺ يستظهرها، فكيف أنت والصحابة الذي كانوا لا يُضارعون طولَ باع ولا علوَّ همة في هذا الميدان!!

العامل السابع

منزلة الكتاب والسنة من الدين، فالكتاب هو أصل التشريع الأول والدستور الجامع لخير الدنيا والآخرة، والقانون المنظِّم لعلاقة الإنسان بالله وعلاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه. ثم السنة هي الأصل الثاني للتشريع، وهي شارحةٌ للقرآن الكريم، مفصِّلة لمجمله، مقيدة لمطلقه، مخصِّصة لعامه، مبيِّنة لمبهمه، مظهرة لأسراره كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[٢]. ومن هنا يقول يحيى بن كثير: السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتابُ قاضياً على السنة» يريد بهذه الكلمة ما وضَّحه السيوطي بقوله: «والحاصل أن معنى احتياج القرآن إلى السنة أنها مبينة له، ومفصلة لمجملاته، لأن فيه لِوَجازته كنوزاً يحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها فيبرزها، وذلك هو المنزل عليه ﷺ وهو معنى كون السنة قاضيةً على الكتاب، وليس القرآن مبيناً للسنة، ولا قاضياً عليها، لأنها بينة بنفسها، إذ لم تصل إلى حدِّ القرآن في الإعجاز والإيجاز، لأنها شرح له، وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشروح» اهـ.

ولا ريب أن الصحابة كانوا أعرف الناس بمنزلة الكتاب والسنة، فلا غرو أن كانوا أحرص على حذقهما وتحفظهما والعمل بهما.

العامل الثامن

ارتباط كثير من كلام الله ورسوله بوقائع وحوادث وأسئلة، من شأنها أن تثير الاهتمام، وتنبه الأذهان، وتلفت الأنظار إلى قضاء الله ورسوله فيها، وحديثهما عنها

---

(١) سنن ابن ماجة، المقدمة: ٢، وسنن الترمذي، علم: ١٠، ومسند الدارمي، مقدمة: ٣٩، وأحمد في مسنده ٤/١٣٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٤.

وإجابتهما عليه وبذلك يتمكن الوحي الإلٰهي والكلام النبوي في النفوس أفضلَ تمكن، وينتقش في الأذهان على مرِّ الزمان.

تجوَّلْ مرَّةً في رياض القرآن الكريم، تجده يساير الحوادث والطوارىء في تجدُّدها ووقوعها، فتارةً يجيب السائلين على أسئلتهم بمثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[1]. وتارة يفصل في مشكلة قامت، ويقضي على فتنة طغت، بمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[2]. إلى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾[3] وهن ست عشرة آية من سورة النور نزلن في حادث من أروع الحوادث، هو اتهام أم المؤمنين السيدة الجليلة عائشة زوج رسول الله ﷺ، وبنت الصديق أبي بكر (رضي الله عنها وعن أبيها). وفي هذه الآيات دروس اجتماعية قرئت ولا تزال تقرأ على الناس إلى يوم الساعة ولا تزالُ تسجل براءة هذه الحصان الطاهرة من فوق سبع سموات. وتارة يلفت القرآن أنظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التي وقعوا فيها ويرشدهم إلى شاكلة الصواب. كقوله سبحانه في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[4] إلى آيات كثيرة بعدها. وكلها نزلت في غزوة أحد تدل المسلمين على خطئهم في هذا الموقف الرهيب، وتحذرهم أن يقعوا حيناً آخر في مثل ذاك المأزق العصيب.

وعلى هذا النمط نزلت سور في القرآن وآيات تفوت العدد وتجاوز الإحصاء.

وإذا تجولتَ في رياض الحديث النبوي الشريف يطالعك منه العجب العاجب في هذا الباب. انظر قصة المخزومية التي سرقت وقول الرسول ﷺ لمن شفع فيها: «وأيمُ الله لوْ أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقتْ لقطعتُ يدهَا»[5] رواه أصحاب الكتب الستة. ثم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) سورة النور، الآية: ١١.

(٣) سورة النور، الآية: ٢٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٢١.

(٥) الحديث رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي: ١٨، والحدود: ١٢؛ ومسلم في الحدود، حديث: ٨، ٩؛ وأبو داود في الحدود: ٤؛ والترمذي في الحدود: ٦؛ والنسائي في السارق: ٥ وابن ماجة في الحدود: ٦؛ والدارمي في الحدود: ٥؛ وأحمد ٣/٣٨٦.

تأمل حادث تلك المرأة الجهنية التي أقرت بزناها بين يدي رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا، كيف أمر الرسول فكفلها وليها حتى وضعت حملها، ثم أتى بها فرجمتْ، ثم صلى رسولُ الرحمة عليها. ولما سئل صلوات الله وسلامه عليه كيف تصلي عليها وهي زانية؟ قال: «إنها تابتْ توبةً لوْ قسمت عَلَى سبعينَ منْ أهلِ المدينة لوَسعتهمْ. وهلْ وجدتْ أفضلَ منْ أنْ جادتْ بنفسها لله عزَّ وجلَّ»؟ رواه مسلم[1]. وتدبر الحديث المعروف بحديث جبريل، وفيه يسأل جبريلُ رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراطها على مرأى ومسمع من الصحابة. وقد قال لهم أخيراً: هذا جبريلُ أتاكمْ يعلمكمْ دينكمْ». أخرجه الخمسة[2] غير البخاري. والناظر في السنة يجدها في كثرتها الغامرة، تدور على مثل تلك الوقائع والحوادث والأسئلة.

وقد قرَّر علماء النفس أن ارتباط المعلومات بأمور مقارنة لها في الفكر، يجعلها أبقى على الزمن، وأثبت في النفس، فلا بدع أن يكون ما ذكرنا داعية من دواعي حفظ الصحابة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، على حين أنهم هم المشاهدون لتلك الوقائع والحوادث، المشافهون بخطاب الحق، المواجهون بكلام سيد الخلق، في هذه المناسبات الملائمة والأسباب القائمة، التي تجعل نفوسهم مستشرفةً لقضاء الله فيها، متعطشة إلى حديث رسوله عنها، فينزل الكلام على القلوب وهي متشوِّفة، كما ينزل الغيث على الأرض وهي متعطشة، تنهله بلهف، وتأخذه بشغف، وتمسكه وتحرص عليه بيقظة، وتعتز به وتعتدُّ عن حقيقة، وتنتفع به وتنفع، بل تهتزُّ به وتربو وتنبتُ من كل زوج بهيج!!

العامل التاسع

اقتران القرآن دائماً بالإعجاز، واقتران بعض الأحاديث النبوية بأمور خارقة للعادة، تروع النفس، وتشوق الناظر، وتهول السامع. وإنما اعتبرنا ذلك الإعجاز وخرق العادة من عوامل حفظ الصحابة، لأن الشأن فيما يخرج على نواميس الكون وقوانينه العامة، أن

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحدود، حديث: ٢٤؛ والترمذي في الحدود: ٩ والإمام أحمد، ٤/ ٤٣٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب: ٣٧، ومسلم في الإيمان ١، ٥؛ والترمذي في الإيمان: ٤؛ وأبو داود في السنة: ١٦، والنسائي في المواقيت: ٦، وابن ماجة في المقدمة: ٩. أحمد في مسنده ١/ ١٥.

يتقرَّر في حافظة منْ شاهده، وأن يتركز في فؤاد كل من عاينه فرداً كان أو أمة؛ حتى لقد يتخذ مبدأ تؤرخُ بحدوثه الأيام والسنون، وتقاس بوجوده الأعمار والآجال.

أما القرآن الكريم فإعجازه سارٍ فيه سريان الماء في العود الأخضر، لا تكاد تخلو سورة ولا آية منه. وأعرف الناس بوجوه إعجازه، وأعظمهم ذوقاً لأسرار بلاغته، هم أصحاب محمد ﷺ، لأنهم يصدرون في هذه المعرفة وهذا الذوق عن فطرتهم العربية الصافية، وسليقتهم السليمة السامية، وتمهرهم في فنون البيان وصناعة اللسان. ومن هذا كان القرآن حياتهم الصحيحة، به يقومون ويقعدون، وينامون ويستيقظون، ويعيشون ويتعاملون، ويلتذون ويتعبدون. وهذا هو معنى كونه روحاً في قوله الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[1] وليست هناك طائفةٌ في التاريخ تمثل فيها القرآن روحاً، كما تمثل في هذه الطبقة العليا الكريمة طبقة الصحابة الذين وهبوه حياتهم فوهبهم الحياة، وطبعهم طبعة جديدة حتى صاروا أشبه بالملائكة، وهكذا سواهم الله بكتابه خلقاً آخر: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[2]!!

وأما السنة النبوية، فقد اقترن بعضها بمعجزات خارقة، وأمامك أحاديث المعجزات وهي كثيرة فيها المعجب والطرب. غير أنا نربأ بك أن تكون فيها كحاطب ليل، على حين أن بين أيدينا في الصحيح منها الجمُّ الغفير والعدد الكثير، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾[3].

وهاكَ نموذجاً واحداً رواه البخاري ومسلم عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطينَّ هذه الراية غداً رجلاً يفتحُ الله على يديه، يحبُّ الله ورسولَه، ويحبهُ الله ورسولهُ، فباتَ الناس يدركونَ (أي يخوضون) ليلتهم، أيهمْ يعطاها، فلما أصبح الناسُ غدوا على رسول الله ﷺ كلهمْ يرجو أنْ يعطاهَا. فقال: أينَ عليُّ بن أبي طالب؟ فقيلَ يا رسولَ الله هو يشتكي مرضاً بعينيه. قال فأرسلوا إليه. فأتي به، فبصقَ رسول الله ﷺ بعينيه، ودعَا لهُ، فبرِىء حتى كأنْ لمْ يكنْ بهِ وجعٌ. فأعطاهُ الرايةَ، فقال عليٌّ رضي الله عنه: يا رسولَ الله أقاتِلهمْ

(١) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١٤.

حتى يكونوا مثلنا؟ قال: انفذْ عَلَى رسلكَ حتى تنزلَ بساحتهمْ، ثمَّ ادعهمْ إلى الإسلام، وأخبرهمْ بمَا يجبُ عليهمْ منْ حقِّ الله تعالى فيهِ، والله لأنْ يهديَ الله بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النعمِ»[١].

وهذه الوصية من الرسول ﷺ لعلي في هذا المقام، جديرةٌ وحدها أن تقطع ألسنة أولئك الأفاكين الذين يزعمون أن الإسلام قام على السيف والقوَّة، واعتمد على البطش والقسوة، ولم ينتشر بالدليل والحجة ولم يجيء بالإسلام والرحمة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾[٢]!.

العامل العاشر

حكمة الله ورسوله في التربية والتعليم، وحسن سياستهما في الدعوة والإرشاد، مما جعل الكتاب والسنَّة يتقرَّران في الأذهان، ويسهلان على الصحابة في الحفظ والاستظهار.

أما القرآن الكريم، فحسبك أن تعرف من حكمة الله به في التربية والتعليم، أنه أنزله على الأمة الإسلامية باللغة الحبيبة إلى نفوسهم، وبالأُسلوب الخلَّاب والنظم المعجز الآخذ بقلوبهم، وأنه تدرَّج بهم في نزوله، فلم ينزل جملةً واحدة يرهقهم به ويعجزون عنه، بل أنزله منجَّماً في مدى عشرين أو بضع وعشرين سنة، ثم ربطه بالحوادث والأسباب الخاصة في كثير من سوره وآياته، ودعمه بالدليل والحجة، وخاطب به العقول والضمائر، وناط به مصلحتهم وخيرهم وسعادتهم، وصدر في ذلك كله عن رحمة واسعة بهم، يكادون يلمسونها باليد ويرونها بالعين! ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾[٣]. ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾[٤].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة: ٩ والمغازي: ٣٨؛ وصحيح مسلم، كتاب الجهاد، حديث ١٣٢، وفضائل الصحابة: ٣٢، والترمذي في المناقب: ٢٠؛ وابن ماجة في المقدمة: ١١؛ والإمام أحمد في مسنده ١٠/ ٣٣١.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

وأما السنَّة النبوية، فقد ضربت الرقم القياسي في باب هذه السياسة التعليمية الراشدة، حتى إذا كان علماء التربية في العصور الحديثة، قد عدُّوا من الحكمة في التعليم والتربية الاستعانة بوسائل الإيضاح، وألوان التشويق، فإن محمداً ﷺ النبيَّ الأميَّ، كان من قبل أربعة عشر قرناً، ومن قبل أن يولد علم التربية وعلم النفس، كان هو المعلم الأول في رعاية تلك الوسائل الموضّحة، وهاتيك المشوِّقات الرائعة، حتى تفتحت قلوب سامعية للهداية، وامتلأت صدور أصحابه بتعاليمه، كأنما كُتِبَتْ فيها كتاباً بالكلمة والحرف.

ذلك لأنه ﷺ كان أفصح الناس لساناً، وأوضحهم بياناً وأجودهم إلقاءً، ينتقي عُيون الكلام وهو الذي أُوتي جوامع الكلم، ويفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه ويُفصله تفصيلاً يُراعي فيه المقام والأفهام، ولا يسرد الحديث سرداً يُزْري برَوْنقه أو يذهب بشيء منه، بل يتكلم كلاماً لو عدَّه العادُّ لأحصاه. وكان يعيد الكلمة ثلاثاً أو أكثر من ثلاث عند الحاجة، كيما تحفظ عنه، كما جاء في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ»[1] قالها ثلاثاً. وكما جاء في حديث البخاري ومسلم[2] أنه ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبرِ الكبائرِ (ثلاثاً) قلنا: بَلَى يا رسول الله قال: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، ألاَ وقولُ الزورِ وشهادةُ الزورِ ـ وكان مُتَّكِئاً فجَلسَ ـ فما زالَ يُكرِّرُها حتى قُلنا لَيتَهُ سَكتَ».

ومن هَدْيه ﷺ أنه كان إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوتهُ واشتدَّ غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبَّحكم ومسَّاكم. يقول: بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين (وَيَقْرُنُ بينَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى) ويقول: «أمَّا بَعْدُ فإنَّ خَيْرَ الحديث كتابُ الله، وخيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الأمرِ مُحْدَثَاتُهَا وكلَّ مُحدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ. ثم يقول: أنَا أَوْلَى بكلِّ مؤمنٍ مِنْ نفسِهِ. مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلأَهْلِه، ومَنْ تَرَكَ دَيناً أو ضَيَاعاً[3] فإلَيَّ وَعَلَيَّ» رواه مسلم[4].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب العلم، حديث: ٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب: ١٠، والاستئذان، ٣٥؛ وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث ١٤٣، ١٤٤.

(٣) الضياع بفتح الضاد يستعمل مصدراً لضاع، ويستعمل اسماً بمعنى العيال أو الضائعين منهم. قال في القاموس: «والضياع أيضاً العيال، أو ضُيَّعُهم» اهـ ولا يخفى أن المعنى المصدري غير مراد هنا (م).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الجمعة، حديث: ٤٣.

ومن وسائل إيضاحه ﷺ أنه كان يضرب لهم الأمثال الرائعة التي تُجَلِّي لهم المعاني، كأنها العروسُ بارعةً ليلة الزفاف، أو الشمسُ ساطعةً ليس دونها سحاب. تأمل قوله وهو يضرب المثل في ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخطر إهمالهما، ثم قل لي بربك: هل يبارح ذاكرتك هذا التمثيل البديع؟

يروي البخاري[١] عن النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال: «مثلُ القائم في حدود الله وَالواقع فيها، كمثَلِ قوم استَهَموا في سفينة، فصارَ بعضُهم أعْلاها وبعضُهم أسفلها. وكان الذي في أسفلِهَا إذَا اسْتَقَوْا منَ الماءِ مَرُّوا على منْ فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنَا في نصيبِنا خرْقاً ولم نُؤْذِ مَنْ فوْقنا. فَإنْ تركوهُمْ ومَا أرادُوا هَلَكُوا جميعاً. وإنْ أخَذُوا عَلى أيديهمْ نَجَوْا ونجوا جميعاً».

ومن وسائل إيضاحه ﷺ أسئلته التي كان يلقيها على أصحابه، فيوقظ بها انتباههم، ويُرْهف بسببها شعورهم، حتى يستقبلوا هَدْيه بنفوس عطاش، وقلوب ظِماء، فيستقرَّ فيها أثبت استقرار، ويعلقَ بها علوق الروح بالأجسام.

وإليك مثلاً واحداً عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتَدْرُون منِ الْمُفْلِسُ؟ قالوا: المفلِسُ فِينَا منْ لاَ دِرْهمَ لهُ وَلاَ دينَارَ وَلاَ مَتَاعَ. فقال: إنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمتي مَنْ يَأْتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيام وزكاةٍ، ويأتي وقد شَتَمَ هذا، وَقَذَفَ هذا، وأكلَ مَالَ هذا وسَفَكَ دَمَ هذَا، فَيُعطَى هذَا مِنْ حَسَنَاته، وهذا من حَسناته، فإنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قبلَ أنْ يُقْضَى مَا عليه، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عليهِ، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ» رواه مسلم[٢].

ومن العجائب في وسائل إيضاحه عليه الصلاة والسلام أنه كان يستعين برسم يديه الكريمتين على توضيح المعاني وتقريبها إلى الأذهان، مع أنَّه النبي الأمي الذي لم يقرأ كتاباً، ولم يجلس إلى أستاذ، ولم يذهب إلى مدرسة، ولم يدرس الرسم ولا الهندسة.

نقرأ في صحيح البخاري[٣] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «خَطَّ لَنَا رسولُ

(١) صحيح البخاري، باب الشركة في الطعام: ٦.
(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، حديث: ٥٩.
(٣) صحيح البخاري، الرقاق: ٤.

الله ﷺ خطًّا مُرَبَّعاً، وخطَّ وسَطَهُ خطًّا، وخطَّ خُطُوطاً إلى جَنْبِ الخط (أي الذي في الوسط)، وخطَّ خطاً خارجاً. فقال: أتدْرُونَ مَا هذا؟ قلنا: الله ورسولُه أَعْلَمُ. قال: هذا الإنسانُ (يريد الخط الذي في الوسط) وهذا الأجلُ مُحِيطٌ به (يريد الخط المربع) وهٰذِهِ الأعراضُ تَنْهَشُهُ (يشير إلى الخطوط التي حوله) إنْ أَخْطَأَهُ هذا نَهَشَهُ هذَا وهٰذَا الأَمَلُ (يعني الخطَّ الخارج).

ومن سياسته الحكيمة في التعليم والتربية، أنه كان ينتهز فرصة الخطأ في أفهامهم. فيصَحِّح لهم الفكرة في حينها، ويلقِّنهم تعاليمه السامية ونفوسهم مستشرفة لها. من ذلك ما يقصُّه علينا البخاريُّ ومسلم[1] عن أنس رضي الله عنه قال: «جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النبيِّ ﷺ يسألونَ عنْ عبادَتِهِ، فلَمَّا أُخبِرُوا كأَنَّهُمْ تَقَالُّوها (أي رأوها قليلة) وقالوا: أينَ نحنُ من رسول الله ﷺ وقد غُفِرَ لهُ ما تقدم من ذَنبهِ وما تأخَّر؟ قال أحدُهُمْ: أمَّا أنا فأُصلِّي اللَّيلَ أبداً. وقال الآخرُ: وأنَا أصُومُ الدَّهرَ أبداً. وقال الآخر: وأنا أعْتزلُ النِّسَاء فلا أتزوَّج أبداً. فجاءَ رسول الله ﷺ إليهمْ، فقال: أنتم الذينَ قُلتمْ كذا وكذا!! أما والله إني لأَخْشَاكُم لله، وأتقاكُم لله، ولٰكِني أصومُ وأُفطرُ، وأُصلي وأرْقُدُ، وأتزوَّجُ النساء، فمن رغِبَ عنْ سُنَّتي فليْسَ مِنِّي».

وكان من وسائل إيضاحه تمثيله ﷺ بالعمل. يصلي ويقول: «صَلُّوا كما رأيْتُمُوني أصلي»[2] ويحجُّ ويقول: «خُذُوا عنِّي مَنَاسِكَكُمْ» ويشير بأصبعيه السبابة والوسطى ويقول: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهَاتَيْنِ» كما تقدَّم في رواية مسلم.

العامل الحادي عشر

الترغيب والترهيب اللذان يفيض بهما بحر الكتاب والسنة. ولا ريب أن غريزة حب الإنسان لنفسه تدفعه إلى أن يحقق لها كل خير، وأن يحميها من كلِ شر، سواء ما كان فيهما من عاجل وما كان من آجل، ومن هنا تحرص النفوس الموفقة على وَعْي هداية القرآن وهدي الرسول، وتعمل جاهدةً على أن تحفظ منهما ما وسعها الإمكان.

أما النفوس الضالة المخذولة، فإنها مصروفة عن هذه السعادة بصوارف الهوى

(١) صحيح البخاري، نكاح: ١، وصحيح مسلم، نكاح: ٥.
(٢) صحيح البخاري، أذان: ١٨، وأدب: ٢٧، ومسند أحمد، ٥/ ٥٣.

والشهوة، أو محجوبة عن هذا المقام بحجاب التعصب والجمود على الفتنة، أو مرتطمة بظلام الجهل في أوْحَالِ الضلال والنكال.

ولسنا بحاجة أن نلتمس شواهد الترغيب والترهيب من الكتاب والسنة، فمددهما فيَّاض بأوفى ما عرف العلم من ضروب الترغيب والترهيب، وفنون الوعد والوعيد، وأساليب التبشير والإنذار على وجوه مختلفة، واعتبارات متنوعة، في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق على سواء.

وهاك نَموذَجاً من ترغيبات القرآن وترهيباته على سبيل التذكير، والذكرى تنفع المؤمنين.

يقول تبارك اسمه في سورة واحدة هي سورة السجدة: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

فانظر بعين بصيرتك في أساليب هذه الترغيبات، وفنون تلك الترهيبات، التي احتوتها هذه الآيات، والقرآن مَلِيءٌ كله من هذه الأنوار على هذا الغرار!

ولا تحسبن السنة النبوية إلا بحراً متلاطم الأمواج في هذا الباب. وهاك نموذجاً

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٠ ـ ٢٢.

بل نماذج منها تدلك على مدى ما تتأثَّر به النفوس البشرية عند ما يمرُّ بها الوعد والوعيد، وما يتركه هذا التأثُّر من ثبات الأوامر والنواهي واستقرارها في الذهن، وانتقاشها في صحيفة الفكر، ثم اندفاع الإنسان من ورائها إلى العمل والاتباع.

ها هو ذا ﷺ يبشر واصلَ رحمه بسعة الرزق والبركة في العمر فيقول: «مَن سرَّه أنْ يُبسَطَ له في رِزْقِهِ، وأن يُنسَأ له في أثَرِه، فَلْيَصِلْ رَحِمَه» أخرجه البخاري[١] والترمذي.

وها هو ﷺ يتحدث بالوعد لمن جعل الآخرة همَّه، وبالوعيد لمن جعل الدنيا همَّه فيقول: «منِ كانت الآخرةُ هَمَّهُ جَعَلَ الله غِنَاهُ في قلبهِ، وجمَعَ له شمله، وأَتَتْهُ الدُّنيا وهي راغمةٌ. ومَنْ كانت الدنيا هَمَّهُ جَعَلَ الله الفقرَ بين عَيْنَيْهِ، وفرَقَ الله عَلَيْهِ شملهُ، ولم يأتِهِ منَ الدُّنيا إلا ما قُدِّرَ له» رواه الترمذي[٢].

وها هو ﷺ يحرِّض المؤمنين على القتال ويحثهم على الدفاع والنضال، فيقول: «تَضَمَّنَ الله لمن خرج في سبيلِ الله، لا يُخْرِجُهُ إلاَّ جهادٌ في سبيلي، وإيمانٌ بي، وتصديقٌ برسلي، فهو عَلَيَّ ضامِنٌ أن أُدْخِلَهُ الجنَّةَ؛ أوْ أرجِعهُ إلى مسكَنِه الذي خرَجَ منهُ نائِلاً ما نالَ من أجرٍ أو غنيمةٍ. والذي نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ ما مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئتِهِ يَوْمَ كُلِمَ؛ لونُـهُ لونُ دمٍ، وريحُهُ ريحُ مسكٍ. والذي نَفْسُ محمَّدٍ بيده لولاَ أنْ أَشُقَّ على المسلمين ما قعدْتُ خلافَ سَرِيَّةٍ تغزو في سبيل الله عزَّ وجلَّ أبداً. ولٰكِنْ لا أجدُ سَعَةً فأحمِلَهُمْ، ولا يجدونَ سَعَةً فيَتْبَعُوني ويَشُقُّ عليهم أنْ يَتَخَلَّفُوا عني والذي نَفْسُ محمد بيده لوَدِدْتُ أن أغْزُوَ في سبيل الله فأُقْتَلَ، ثمَّ أغْزُوَ فأُقْتَلَ» أخرجه الثلاثة والنسائي[٣].

فأنت ترى في هذه الكلمات النبوية قوة هائلة محولة؛ تجعلها ماثلة في الأذهان، كما تجعل النفوس رخيصة هينة في سبيل الدفاع عن الدين والأوطان. حتى لقد كان الرجل يستمع إلى هذه المرغبات والمشوِّقات وهو يأكل، فما يصبر حتى يتم طعامه، بل يرمي بما في يده، ويقوم فيجاهد متشوقاً إلى الموت، متلهفاً على أن يستشهد في

---

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب: ١٣.
(٢) سنن الترمذي، قيامة: ٣؛ وأحمد ١٨٣/٥.
(٣) البخاري، الذبائح ٣١؛ ومسلم، الإمارة ١٠٣؛ وأحمد ٢٣١/٢ والنسائي، الجهاد ١٤.

سبيل الله. كذلك أخرج مالك عن يحيى بن سعيد: «أنَّ رسول الله ﷺ رغّب في الجهاد وذكر الجنةَ ورجلٌ من الأنصار يأكل تمرات، فقال: إني لحريصٌ على الدنيا إن جلستُ حتى أفرغَ منهن، فرمى ما في يده، وحملَ بسيفه، فقاتل حتى قتل»[١].

العامل الثاني عشر

اهتداء الصحابة رضوان الله عليهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يحلُّون ما فيهما من حلال، ويحرِّمون ما فيهما من حرام، ويتبعون ما جاء فيهما من نصح ورشد، ويتعهَّدون ظواهرهم وبواطنهم بالتربية والآداب الإسلامية، دستورهم القرآن، وإمامهم الرسول عليه الصلاة والسلام.

وما من شك أن العمل بالعلم يقرِّره في النفس أبلغ تقرير، وينقشه في صحيفة الفكر أثبت نقش، على نحو ما هو معروف في فن التربية وعلم النفس، من أن التطبيق يؤيد المعارف، والأمثلة تقيِّد القواعد، ولا تطبيق أبلغ من العمل، ولا مثال أمثل من الاتباع، خصوصاً المعارف الدينية، فإنها تزكو بتنفيذها، وتزيد باتباعها. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾[٢] أي هدايةً ونوراً تفرقون به بين الحق والباطل، وبين الرشد والغيّ، كما جاء في بعض وجوه التفاسير. وذلك أن المجاهدة تؤدي إلى المشاهدة، والعناية بطهارة القلوب وتزكية النفوس تفجر الحكمة في قلب العبد. قال الغزالي رحمه الله: «أما الكتب والتعليم فلا تَفِي بذلك (أي بالحكمة تتفجر في القلب) بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد، إنما تتفتح بالمجاهدة ومراقبة الأعمال الظاهرة والباطنة، والجلوس مع الله عز وجل في الخلوة، مع حضور القلب بصافي الفكرة، والانقطاع إلى الله عز وجل عما سواه، فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف! فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة. وكم من مقتصر على المهم في التعليم، ومتوفر على العمل ومراقبة القلب، فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوي الألباب. ولذلك قال ﷺ: «من عملَ بمَا علمَ ورثهُ الله علمَ مَا لمْ يكنْ يعلمُ»[٣].

---

(١) موطأ الإمام مالك، حديث ١٠٠٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٣) قال الحافظ العراقي في هذا الحديث: رواه أبو نعيم في الحلية لكن بسند ضعيف. (م).

العامل الثالث عشر

وجود الرسول ﷺ بين ظَهْرَانَيهم، يُحَفِّظُهم من الكتاب والسنة ما لم يحفظوه، ويعلمهم ما جهلوه، ويجيبهم إذا سألوه، ويريهم شاكلة الصواب فيما أخطؤوه، ويَقِفهم على حقيقة الأمر إذا تشكّكوه، في صبر وأناة وسَعَة صدر وكرم نفس وطيب قلب. ولا ريب أن هذا عاملٌ مهمٌ يسر لهم الحفظ ويهوِّن عليهم الاستظهار، ضرورةَ أنه ﷺ مرجع واضح، ومنهل عذب، لا سيما إذا لاحظنا أنه ﷺ كان دائم البشر، سهل الخلق، ليِّن الجانب، ليس بفظٍّ، ولا غليظ ولا صخَّاب، ولا فحَّاش، ولا عياب، وأن من جالسه أو فاوضه في حاجة صابَره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناسَ بسطُه وخلقُه، فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواءً. مجلسه مجلس علم وحياء وأمانة وصبر، يُدرس فيه القرآن، وتذاع فيه السنة، ويَعْبَقُ منه أريجُ الهداية.

عوامل خاصة بالقرآن الكريم:

تلك العوامل التي ذكرناها عوامل مشتركة بين الكتاب والسنة، طَوَّعَتْ للصحابة حفظَهما واستظهارهما، والإحاطة بهما وحذقهما.

بيد أن هناك عوامل خاصَّة توافرت في حفظ الصحابة للقرآن دون السنة.

أولها: أن الله تعالى تحدَّى بالقرآن أمة العرب، بل كافة الخلق فقال سبحانه: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾[١] ولما عجزوا قال: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾[٢] ولما عجزوا أيضاً قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[٣] ولما عجزوا الثالثة سجَّل عليهم هزيمتهم وأعلن فلَج القرآن بالإعجاز في هذا الميدان، إذ قال عزَّ اسمه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[٤].

هذا التحدِّي الذي امتاز به القرآن، فتح عيون الناس جميعاً، ولفتهم بقوة إليه، لا فرق بين أوليائه وأعدائه. أما أولياؤه ومتَّبعوه؛ فقرؤوه من هذه الناحية؛ ليُفحموا به

(١) سورة الطور، الآية: ٣٤.
(٢) سورة هود، الآية: ١٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

أعداءهم، ويؤيّدوا بإعجازه دينهم ونبيهم. وأما أعداؤه ومخالفوه، فاقتفوا أثره وتتبعوه، أمَلاً في أن يجدوا فيه مَغْمزاً، ويأخذوا عليه مَطْعناً. فلا جرم كان هذا التحدي من الدواعي التي توافرت على نقل القرآن وتواتره وجريانه على كل لسان!.

ثانيهما: عنايته ﷺ بكتابة القرآن فيما تيسَّر من أدوات الكتابة، إذ اتخذ كُتَّاباً للوحي من أصحابه. وأقرَّ كل من يكتب القرآن لنفسه في الوقت الذي نهى فيه عن كتابة السنة في الحديث الذي أسلفناه من رواية مسلم «لاَ تَكْتُبُوا عنِّي وَمَن كَتَبَ عني شيئاً غيرَ القُرآن فليَمْحُهُ».

وغنيٌّ عن البيان، أن الكتابة من عوامل تيسير الحفظ والاستظهار.

ثالثها: تشريع قراءة القرآن في الصلاة، فرضاً كانت أو نفلاً، سرًّا أو جهراً، ليلية أو نهارية؛ حتى صلاة الجنازة. ومثل الصلاة في ذلك خطبة الجمعة. وتلك وسيلة فعالة؛ جعلت الصحابة يقرؤونه ويسمعونه؛ ثم جعلتهم عن هذا الطريق يتحفَّظونه ويستظهرونه، لا فرق بين رجل وامرأة، وصغير وكبير؛ وغني وفقير، على قدر ما سمح به استعداد كل منهم.

رابعها: الترغيب في تلاوة القرآن ولو في غير صلاة ومن غير وضوء. اقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾[1].

ويقول النبي ﷺ: «الذي يَقْرَأُ القُرْآنَ وهوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الكرام البررَةِ. والذي يَقْرَأُ القُرْآنَ وهو يَتَتَعْتَعُ فيهِ وهو عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ» رواه البخاري ومسلم[2].

ويقول ﷺ: «لا حَسَدَ إلاَّ في اثنتين: رَجُلٍ آتَاهُ الله القرآنَ وهو يقوم به آنَاءَ اللَّيْلِ وآنَاءَ النهَار، ورَجلٍ آتَاهُ الله مَالاً فهُوَ يُنفقه آنَاء اللَّيلِ وآنَاءَ النهار» رواه الشيخان[3] أيضاً.

---

(١) سورة فاطر، الآيتان: ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) صحيح البخاري، تفسير سورة (٨٠)، وصحيح مسلم، كتاب المسافرين، حديث ٢٤٤.

(٣) صحيح البخاري، فضائل القرآن، باب: ٢٠؛ وصحيح مسلم، كتاب المسافرين، حديث ٢٦٦.

ويقول ﷺ: «مَنْ قرأ حرفاً منْ كِتَابِ الله تَعَالَى فلَهُ حسنةٌ، والحسنةُ بِعَشْرِ أمثَالَها. لا أقول: الَـمّ حَرْفٌ. وَلٰكِنْ أَلِفٌ حرفٌ؛ وَلاَمٌ حرفٌ؛ وَمِيمٌ حَرْفٌ» رواه الترمذي[١] وقال: حسن صحيح.

ويقول ﷺ[٢]: «يُقَالُ لِقَارِىء القرآنِ اقرأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كنتَ تُرَتِلُ في الدنيَا؛ فإنَّ منْزِلَتَكَ عِنْدَ آخر آيةٍ تَقْرَؤُهَا» رواه أبو داود والترمذي والنسائي. ويقول ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» رواه البخاري[٣].

فهل يعقل أن أصحاب محمد ﷺ الذين سمعوا ذلك وأمثال ذلك؛ يتوانون لحظةً عن قراءة القرآن؟ ثم ألا تكون تلك التلاوة سبيلاً إلى أن يحذقوه ويحرزوه؟

خامسها: عناية الرسول ﷺ بتعليم القرآن وإذاعته ونشره، إذ كان يقرؤه على الناس على مكث كما أمره الله. وكان يسمعهم إياه في الخطبة والصلاة؛ وفي الدروس والعظات؛ وفي الدعوة والإرشاد، وفي الفتوى والقضاء؛ وكان يُرَغِّب في تعليمه ونشره كما سمعت. وكان يرسل بَعَثات القرّاء إلى كل بلد يعلّمون أهلها كتاب الله، كما أرسل مُصْعَب بن عمير وابن أُمِّ مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته ﷺ إليها، وكما أرسل مُعاذ بن جبل إلى مكة بعد الفتح للإقراء. قال عبادة بن الصامت: كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجلٍ منا يعلمه القرآن.

سادسها: القَدَاسة التي امتاز بها كتاب الله عن كل ما سواه، حيث اجتمع فيه من المزايا ما قصصنا عليك وما لم نقصص عليك؛ كنسبته إلى الله تعالى، وكحرمة قراءته على الجنب والحائض والنفساء، وكحرمة مَسِّ مصحفه وحمله على أولئك جميعاً وعلى المحدث حدثاً أصغر أيضاً، إلى غير ذلك.

ولا شك أن هذه القداسة تلفت الأنظار إليه، وتخلع هم المؤمنين به عليه، فيحيطون به علماً، ويخضعون لتعاليمه عملاً. وذلك ما حدا المسلمين في كل عصر ومصر أن يُعْنَوْا بحفظ كتاب الله حتى عصرنا الذي نعيش فيه، فما بالك بعصر الصحابة

---

(١) سنن الترمذي، ثواب القرآن: ١٦.
(٢) الترمذي، ثواب القرآن: ١٨، وأبو داود في الوتر: ٢٠. وأحمد ٢/١٩٢.
(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن: ٢١.

وهو عصر العلم والنور، والتقوى والهداية، والنشر والدعوة؟

أما بعد: فهذه بضعة عشر عاملاً توافرت في أصحاب الرسول الأكرم ﷺ حتى حفظوا الكتاب والسنة، وقد جمعناها لك هذا الجمع، معتقدين أن من ورائها عوامل شخصية توافرت في بعض القراء وبعض المحدثين منهم دون بعض. والسبيل إلى تلك العوامل الشخصية دراسة تراجم أولئك القرَّاءِ والمتصدِّرين لرواية الحديث من الصحابة، فارجع إليها إن شئت، واحرص على ما ذكرنا لك، وصُغْ منها أسلحة علمية مُرْهفَة تشهرها في وجه أولئك الخونة الذين يخوضون في الصحابة بغير علم، ويطعنون في الكتاب والسنة عن طريق الطعن فيهم بعدم الحفظ والضبط.

ونحن نتحدَّى أُمم العالم بهذه الدواعي التي توافرت في الصحابة حتى نقلوا الكتاب والسنة، وتواتر عنهم ذلك خصوصاً القرآن الكريم.

أولئكَ آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنَا يا جريرُ المجامعُ![1]

غمرهم الله برحمته ورضوانه، وصبَّ عليهم شآبيب جوده وإحسانه. آمين.

٢ ـ الجبهة الثانية أو عوامل تثبت الصحابة في الكتاب والسنة

الآن وقد فرغنا من عوامل حفظ الصحابة للكتاب والسنة، نعرج على عوامل تثبتهم ـ رضوان الله عليهم ـ فيهما. فنذكر أنَّ الناظر في تاريخ الصحابة، يروعه ما يعرفه عنهم في تثبتهم، أكثر مما يروعه عنهم في حفظهم؛ لأن التثبت فضيلة ترجع إلى الأمانة الكاملة والعقل الناضج من ناحية، ثم هو في الصحابة بلغ القمة من ناحية أخرى، إذ كان تثبتاً بالغاً، وحذراً دقيقاً، وحيطة نادرة، وتحرياً عميقاً لكتاب الله تعالى وهدي رسول ﷺ في كل ما يتصل بهما عن قرب أو بعد.

ولهذا التثبت النادر في دقته واستقصائه، بواعث ودواع، أو أسباب وعوامل، يحمل بنا أن نقدِّمها إليك، كأسلحة ماضية تنافح بها عن الكتاب والسنة، وعن الصحابة في أدائهم للكتاب والسنة.

(١) البيت للفرزدق من كلمة يفخر فيها على جرير.

العامل الأول

أن الله تعالى أمر في محكم كتابه بالتثبت والتحري، وحذَّر من الطيش والتسرُّع، في الأنباء والأخبار، بله القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾[1].

وكذلك نهى الله عن اتباع ما لا دليل عليه إلا أن تسمع الأذن، أو ترى العين، أو يعتقد القلب عن برهان، فقال عزَّ من قائل: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[2].

وقد عاب القرآن على من يأخذون بالظن فيما لا يكفي فيه الظن، فقال الله جلَّ شأنه: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾[3] إلى غير ذلك من أدلة كثيرة في الكتاب والسنة تأمر بالنظر، وكان الصحابة هم المخاطبين بهذه التعاليم والمشافهين بها، فلا ريب أن تكون تلك الآداب الإسلامية من أهمِّ العوامل في تثبتهم وحذرهم خصوصاً فيما يتصل بكتاب ربهم وسنة نبيهم. وبعيد كل البعد، بل محالٌ كل الاستحالة، أن يكونوا قد أهملوا هذا النصح السامي، وهم خير طبقة أُخرجتْ للناس.

العامل الثاني

ما سمعوه من الترهيب الشديد، ومن التهديد والوعيد، لمن يكذب على الله أو يفتري على رسوله ومصطفاه. قال الله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ ﴾[4] فانظر كيف سلك الله من افترى الكذب عليه في سلك من قال أوحيَ إليَّ ولم يوحَ إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله؟ ثم انظر كيف قدَّمه عليهما في الذِّكر وصدره في الوعيد، ونعته أول منْ نعت بالإغراق في الظلم.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.
(٣) سورة النجم، الآية: ٢٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾[١] وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٢].

ونقرأ في السنة النبوية أنه ﷺ قال: «من كذبَ عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعدهُ من النار»[٣]. وهو حديث مشهور، بل متواتر، ورد أنه قد رواه اثنان وستون صحابيًّا منهم العشرة المبشرون بالجنة، ولا يعرف حديث اجتمع عليه العشرة المبشرون بالجنة إلا هذا، ولا حديثٌ يروى عن أكثر من ستين صحابيًّا إلا هذا.

ولقد سمع الصحابة هذه الترهيبات وأمثالها. وما أمثالها في القرآن والسنة بقليل، بل لقد سمع الأصحاب نهي رسول الله ﷺ عما دون الكذب وما كان أقل من التزيد، إذ حذرهم رواية الضعفاء والمدخولين فقال: «سيكونُ في آخرِ أمتي أناسٌ يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتمْ ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم» رواه مسلم. بل حذرهم ﷺ رواية المجهولين فقال: «إنَّ الشيطانَ ليتمثلُ في صورةِ الرجلِ فيأتي القوم فيحدثهم الكذبَ، فيتفرقونَ فيقولُ الرجل منهمْ: سمعتُ رجلاً أعرفُ وجههُ ولا أعرفُ اسمهُ يحدثُ كذا وكذا» رواه مسلم[٤].

فهل يستبيح عاقل منصف لنفسه أن يقول: إن الصحابة الذين سمعوا هذه النصائح وتلك الزواجر عن التزيد والافتراء، يقدمون على كذب في القرآن والسنة، أو يقصرون في التثبت والتحري والاحتياط في نقل الذكر الحكيم، والهدي النبوي الكريم؟!

العامل الثالث

أن الإسلام أمرهم بالصدق ونهاهم عن الكذب إطلاقاً، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا

---

(١) سورة الصف، الآية: ٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٠.

(٣) الحديث أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب: ٣٨، إيمان: ١١٢، وأبو داود، أيمان: ١، والترمذي، فتن: ٧٠، وابن ماجة، ٤، ٢٣، والدارمي مقدمة، ٢٥، ٤٦، ٥٠؛ والإمام أحمد: ١/ ٦٥.

(٤) صحيح مسلم، المقدمة، حديث: ٦.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[١]. وأنت خبير بأن هذا الخطاب بهذه الصيغة في هذا المقام مع تقديم الأمر بالتقوى، فيه إشارة إلى أن الصدق المأمور به من مقتضيات الإيمان ومن دعائم التقوى، ويفهم من هذا أن من كذب وافترى، فسبيله سبيل من كفر وطغى. كما صرّح سبحانه بذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[٢].

ويقول النبي ﷺ: «عليكم بالصدقِ فإنهُ معَ البرِّ وهما في الجنةِ. وإياكم والكذبَ فإنهُ معَ الفجورِ وهما في النارِ» رواه ابن ماجه[٣].

وعن صفوان بن سليم رضي الله عنه قال: قلنا يا رسولَ الله: أيكونُ المؤمنُ جباناً؟ قال: «نعم» قلنا: أفيكونُ بخيلاً؟ قال: «نعم». قلنا: أفيكون كذاباً؟ قال: «لا» أخرجه مالك[٤]. فانظر إلى الحديث الأول كيف جعل الصدق هادياً إلى البر وإلى الجنة، وجعل الكذب هادياً إلى الفجور وإلى النار. ثم انظر إلى الحديث الثاني كيف اعتبر الكذب أفحش من الجبن والبخل، وأخرجه في هذه الصورة الشنيعة التي لا تجتمع هي والإيمان في نفس واحدة أبداً!

ومقتضى العجب حين تعلم أن الرسول ﷺ بالغ في تقبيح الكذب حتى في توافه الأشياء ومحقرات الأمور! استمع إليه ﷺ وهو ينهى عن الكذب في المزاح بهذه الطريقة الرادعة فيقول: «ويلٌ للذي يحدثُ ليضحكَ منهُ القوْم فيكذب، ويلٌ لهُ، ويلٌ لهُ» رواه أبو داود والترمذي[٥] ثم استمع إليه ﷺ وهو يتوعد من يكذب في منامه ويقول: «منْ كذب في حلمٍ كلفَ يوْمَ القيامةِ أنْ يعقدَ بينَ شعيرَتينِ، وليس بعاقدٍ بينهما أبداً»[٦].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٥.

(٣) رواه ابن ماجة، كتاب الدعاء، باب: ٥؛ وأحمد: ١/٣، ٥.

(٤) الموطأ، باب ما جاء في الصدق والكذب، حديث رقم ١٨١٦.

(٥) رواه أبو داود في أدب: ٨٠؛ والترمذي، كتاب الزهد، باب: ١٠.

(٦) رواه البخاري في التعبير: ٢٤٥، والترمذي في الرؤيا: ٨؛ والدارمي في الرؤيا: ٨؛ وأحمد: ١/٧٦.

قل لي بربك: هل تلك الطبقة الأولى الممتازة التي سمعت ذلك وأضعاف ذلك بآذانها من فم رسولها، والتي اعتنقت الإيمان بعد البحث والنظر، واعتقدته طريقاً إلى سعادتها وعزِّها، والتي باعت أنفسها وأموالها لله بأن لها الجنة في نعيمها وخلودها. نقول: هل تلك الطبقة الكريمة ترضى بعد ذلك كله أن تركب رأسها وتنكص على أعقابها؟ فتكذب على الله ورسوله، أو لا تتحرّى الصدق في كتاب الله وسنة رسوله! ذلك شططٌ بعيد لا يجوز إلا على عقول المغفلين!

العامل الرابع

أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا مُغْرَمين بالتفقُّه والتعلم، مولَعين بالبحث والتنقيب، مشغوفين بكلام الله وكلام رسول الله، يعقدون المجالس لمدارسة القرآن وفهمه، ويركبون ظهور المطايا لطلب العلم وأخذه. وكانت عناية الرسول بتعليمهم القرآن تفوق كل عناية، يقرؤه عليهم ويخطبهم به، ويزيِّن إمامته لهم بقراءته في صلاته، وفي دروسه وعظاته. وكان فوق ذلك يحب أن يسمعه منهم كما يحب أن يقرأه عليهم. روى البخاري ومسلم[١] أن ابن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ القرآن. قلتُ: يا رسولَ الله أَقرأُ عليكَ وعليكَ أُنْزِلَ؟ قال: إني أُحبُّ أن أسمعه من غيري. فقرأتُ عليه سورةَ النِّساء حتى إذا جئتُ إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[٢] قال: حَسْبُكَ الآنَ. فالْتَفَتُّ إليه فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفان.

وكذلك كان الصحابة، همتهم أن يقرؤوا القرآن ويستمعوه. روى الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرِفُ أصواتَ رُفْقَةِ الأشْعَرِيِّينَ بالليْلِ حين يَدْخُلون، وأعْرفُ منازلهم من أصواتِهم بالقرآنِ بالليل، وإن كُنْتُ لم أرَ منازِلهم حين نَزَلوا بالنَّهارِ»[٣].

---

(١) صحيح البخاري، فضائل القرآن، باب: ٣٢؛ وصحيح مسلم، صلاة المسافرين وقصرها، حديث: ٢٤٧.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب: ٣٨؛ وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث: ١٦٦.

وروى الدارمي[١] وغيره بأسانيدهم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول لأبي موسى الأشعري: ذكِّرنا ربَّنا فيقرأ عنده القرآن. قال النووي: وقد مات جماعات من الصالحين بسبب قراءة من سألوه القراءة.

وقد سبق في عوامل حفظ الصحابة للسنة مدى عنايتهم بالإقبال عليها والاهتمام بلقاء رسول الله ﷺ للتعلُّم منه والأخذ عنه. وروى مكحول عن عبد الرحمٰن بن غنم أنه قال: حدَّثني عَشَرَةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: كُنَّا نَدْرُس العِلم في مسجد قُباء إذْ خرجَ علينا رسول الله ﷺ فقال: «تعلَّموا ما شئتم أن تعلَّموا، فلنْ يأجركُمُ الله حتى تعملوا». رواه الدارمي[٢] موقوفاً على معاذ بسند صحيح. وكلمة العلم في هذا الحديث شاملة لعلم الكتاب وعلم السنة.

أليس هذا الولوع بالكتاب والسنة من دواعي تثبُّتهم فيهما، كما هو من دواعي حفظهم لهما، لأن اشتهار الشيء وذيوعه، ولين الألسنة به، يجعله من الوضوح والظهور، بحيث لا يشوبه لَبْس، ولا يخالطه زَيْف، ولا يُقْبل فيه دخيل.

العامل الخامس

يسر الوسائل لدى الصحابة إلى أن يتثبَّتوا، وسهولة الوصول عليهم إلى أن يقفوا على جليَّة الأمر، فيما استغْلق عليهم معرفته من الكتاب والسنة. وذلك لمعاصرتهم رسول الله ﷺ يتصلون به في حياته، فيشفي صدورهم من الريبة والشك، ويريح قلوبهم بما يُشِعُّ عليهم من أنوار العلم وحقائق اليقين.

أما بعد غروب شمس النبوة، وانتقاله ﷺ إلى جوار ربه. فقد كان من السهل عليهم أيضاً أن يتصلوا بمن سمعوا بآذانهم من رسول ﷺ، والسامعون يومئذٍ عدد كثير وجم غفير، يساكنونهم في بلدهم، ويجالسونهم في نواديهم، فإن شك أحدهم في آية من كتاب الله، أو خبر عن رسول الله أمكنه التثبُّت من عشرات سواه، دون عَنَت ولا عسر!

العامل السادس

شجاعة الأصحاب شجاعةً فطرية، وصراحتهم صراحةً طبيعية، نَشؤوا عليهما

---

(١) رواه الدارمي، في فضائل القرآن: ٣٤.

(٢) رواه الدارمي في المقدمة، باب العمل بالعلم وحسن النية فيه. حديث: ٨.

مُنْذُ حداثتهم، وطبعوا عليهما بفطرتهم وبيئتهم، كأمة متبدِّية لا تعرف خَتْلَ الحضارة الملوَّثة، ولا تألف نفاق المدنية المذَبذَبة. ثم جاء الإسلام فعزَّز فيهم هذا الخلق الفاضل، وزادهم منه، وبنى حضارته الصحيحة ومدنيَّته الطاهرة عليه، بمثل ما سمعت في أصدق الحديث وخير الهدي. حتى لقد كان الرجل منهم يقف في وسط الجمهور يردُّ على أمير المؤمنين وهو يلقي خطاب عرشه ردًّا قوياً صريحاً خَشِناً. بل كانت المرأة تقف في بُهْرَةِ المسجد الجامع فتقاطع خليفة المسلمين وهو يخطب، وتعارض رأيه برأيها، وتقرع حجَّته بحجتها فيما تعتقد أنه أخطأ فيه شاكلة الصواب، وأمير المؤمنين في الحالين يغتبط بهاتيك الصراحة ويُسَرُّ بتلك الشجاعة، ويعلن اغتباطه بموقف ذلك العربي الخشن الذي ردَّ عليه، كما يعلن رجوعه عن رأيه إلى رأي هذه السيدة التي حجَّته بين يديه، وما أمر عمر ببعيد عنكم، ولا مجهول لكم، لا عند ولايته الخلافة وهو قائم يلقي خطاب عرشه، ولا عندما وقف على منبره ينهي عن التغالي في مهور النساء!!

فهل يرضى العقل والمنطق أن تُجرح هذه الأمة الصريحة القوية وتتهم بالكذب أو بالسكوت على الكذب في كلام الله، وفي سنَّة رسول الله؟!

ثم ألا يحملهم هذا الخلق المشرق فيهم على كمال التثبُّت ودقَّة التحري في كتاب الله وسنة رسول الله؟ «لَقَدْ أَسْفَرَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ»!

العامل السابع

تكافُل الصحابة تكافلاً اجتماعياً فرضه الإسلام عليهم، فجعل عيونهم مفتَّحة لكل من يكذب على الله، أو يفتري على رسول الله، أو يخوض في الشريعة بغير علم، أو يفتي في الدين بغير حجة.

أجل: لقد كان كل واحد منهم يعتقد أنه عضو في جسم الأمة، عليه أن يتعاون هو والمجموع في المحافظة على الملَّة، ويعتقد أنه لَبِنَةٌ في بناء الجماعة، عليه أن يعمل على سلامتها من الدغَل والزغَل، والافتراء والكذب، خصوصاً في أصل التشريع الأول وهو القرآن. وأصله الثاني وهو سنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وبين يديك الكتاب والسنة، فاقرأ فيهما إن شئت أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تجدها كثيرة متآخذة، تقرِّر ذاك التكافل الاجتماعي الإسلامي بين آحاد الأمة

بما لا يَدَعُ مجالا لمفترٍ على الله، ولا يترك حيلة لحاطب ليلٍ في حديث رسول الله.

استمع إلى كلام الحق وهو يحضُّ على دعوة الخير وفضيلة النصح إذ يقول سبحانه وتعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[1] إلى أن قال جلَّ ذكره: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2]. وهكذا قدم الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان به، تنويهاً بجلالتهما. وحثًّا على التمسك بحبلهما، وإشارة إلى أن الإيمان بالله لا يُصان ولا يكون إلا بهما.

وتدبَّر قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[3].

ثم تأمل حكم الله على بني الإنسان جميعاً بأنهم غريقون في الخسران، إلا مَنْ جمع عناصر السعادة الأربعة، وهي الإيمان، والعمل الصالح، والتوصية بالحق، والتوصية بالصبر في قوله سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[4].

سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك، وشُنُوفِهوا بخطابه من فم رسول الله عن جبريل عن الله، ثم سمعوا بعد ذلك من كلام رسول الله أمثال ما يأتي:

١ ـ يقول ﷺ: «والذي نفسي بيده لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكن أو يبعث الله عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم» رواه الترمذي[5] بسند حسن عن حذيفة رضي الله عنه.

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٠٤ ـ ١٠٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٣) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨ ـ ٧٩.
(٤) سورة العصر، الآيات: ١ ـ ٣.
(٥) سنن الترمذي، فتن: ٩؛ ومسند أحمد: ٦/ ١٥٠.

٢ ـ وعن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ عَلَى السَّمْع والطاعة في العُسر واليُسْر، والمنشَط والمكره، وعلى أثَرَةٍ علينا، وعلى ألا نُنازع الأمر أهله، إلا أن تروْا كُفراً بَواحاً (أي ظاهراً)، عندكم مِنَ الله تعالى فيه بُرهان، وعلى أن نقول الحقَّ أينما كُنَّا لا نخافُ في الله لوْمَةَ لائم» رواه الشيخان[1]. فهل بعد هذا كله يُعقل أن يعبث الصحابة، أو يقرُّوا من يعبثُ بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ؟

العامل الثامن

تعويدهم الصدق وترويضهم عليه عملاً، كما أرشدوا إليه وأدبوا به فيما سمعت علماً. وأنت خبير بأن التربية غير التعليم، وأن العلم غير العمل، وأن نجاح الفرد والأمة مرهون بمقدار ما يَنْهلان من رحيق التربية، وما يَقْطِفان من ثمرات الرياضة النفسية والقوانين الخلقية.

وأما العلم وحده فقد يكون سلاح شفاء ونذير فناء؛ كما نرى ونسمع، ويا لهول ما نرى وما نسمع!!

ولقد أدرك الإسلام هذه الناحية الجليلة في بناء الأمم، فأعارها كل اهتمام وعُنِيَ بالتنفيذ والعمل أكثر مما عنِيَ بالعلم والكلام. ولعلك لم تنس أنه ﷺ قال لمن يدرسون العلم في مسجد قُباء تلك النصيحة الذهبية الحكيمة: «تعلَّموا ما شِئْتُمْ أن تعلَّموا، فلن يأجُرَكُمْ الله حتى تَعْملُوا»!

ولعلك لم تنس أيضاً أن الإسلام شرع عقوبة من أشنع العقوبات، لمن اقترف نوعاً من الكذب وهو نوع الخوض في الأعراض، تلك العقوبة هي حدُّ القذف الذي يقول الحق جل شأنه فيه من سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾[2].

فتأمل كيف عاقب هذا القاذف الكاذب بالجلد ثمانين، وردَّ شهادته وحكم بأنه من الفاسقين، بل قال: «وأولئك هم الفاسقُون» أي لا فاسق سواهم ولا خارج عن حدود الدين والأدب إلا هم!

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب: ٤٣، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث: ٤١، ٤٢.

(٢) سورة النور، الآية: ٤.

ثم شَنِّفْ مسمعيك بما يرويه أبو داود في سننه[١] من أن عبد اللّه بن عامر قال: «جَاء رسول الله ﷺ إلى بَيْتِنا وأَنَا صَبِيٌّ صغيرٌ، فذَهَبْتُ لألعبَ، فقالت أُمِّي: تعالَ حتى أُعْطِيَكَ. فقال ﷺ: وما أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيَهُ؟ قالتْ: تمراً. فقالَ: أَمَا إِنَّكِ لو لَمْ تفعلي لَكُتِبَتْ عَلَيْكِ كَذْبة»! تصوَّر في هذه التربية السامية كيف لم يسمح الرسول ﷺ لأُمٍّ أن تَعِدَ طفلها الصغير وعداً غير صادق، بل يسائلها: ما الذي كانت تعطيه لو جاء؟ ثم يقرر أنها لو خاست بعهدها هذا لكتبها الله عليها كذبة؟ وهكذا يكتفي بذكر كلمة «كذبة» في هذا المقام ردعاً لها وزجراً ومنه تعلم أن لفظ الكذب كان سوط عذاب يخيف الصحابة رجالاً ونساء. وذلك لما يسمعون عنه من شناعة، ولما يعرفون فيه من بشاعة! ولما تَأَصَّلَ في نفوسهم من فضيلة الصدق وشرف الحق! أفبعد هذه التربية العالية يصحُّ أن يُقال: إن الصحابة يكذبون على الله ورسوله ولا يَتَثَبَّتُون! ألا إن هؤلاء من إفكِهم ليهرفون[٢] بما لا يعرفون، ويُسرفون في تجريح الفضلاء واتهام الأبرياء ولا يستحون، فويل لهم من يومهم الذي يُوعدون!

العامل التاسع

القدوة الصالحة، والأسوة الحسنة؛ التي كانوا يجلونها في رسول الله ﷺ ماثلةً كاملةً، جذّابةً أخّاذة. ولا يَعْزُبَنَّ عن بالك أن القدوة الصالحة خير عامل من عوامل التعليم والتربية، والتأديب والتهذيب، خصوصاً بين نبيّ ومتَّبعيه، وأستاذ ومتعلِّميه، ورئيس ومرؤوسيه، وراعٍ ورعيته.

وها نحن أولاء نرى علماء النفس والاجتماع، وأقطاب التربية والتعليم، وبُناة الأخلاق والأمم: نراهم لا يزالون يتحدَّثون في القدوة الصالحة، ويوصُّون بالقدوة الصالحة، ويبحثون عن القدوة الصالحة وذلك لمكانتها من التأثير والإصلاح، والتقويم والنجاح، في الأفراد والأمم على سواء!!

ولم يعرف التاريخ ولن يعرف قدوةً أسمى، ولا أُسوة أعلى، ولا إمامةً أسنى، من محمد ﷺ في كافة مناحي الكمال البشري، خصوصاً خُلقَه الرضيَّ، وأدبه السنيَّ، ولا سيما صدقه وأمانته، وتحرِّيه ودقَّته!

---

(١) سنن أبي داود، أدب: ٨٠.

(٢) يهرفون: يهذون.

أجل: فقد كان ﷺ مشهوراً بالصدق، معروفاً بالأمانة، حتى من قبل بَعْثته ورسالته، فكان إذا سار أشاروا إليه بالبنان؛ وقالوا: هذا هو الصادق، وإذا حكم رضوا حكومته وقالوا: هذا هو الأمين!

وكانت هذه الفضائل المشرقة فيه، من بواعث إيمان المنصفين من أهل الجاهلية به. ولقد اضطرَّ أن يشهد له بها أعداؤه الألدَّاء، كما آمن بها أتباعه الأوفياء!

فهذا أبو سفيان بن حرب زعيم حزب المعارضة له يُقِرُّ بين يدي قَيْصَر الرُّوم بصدق محمد وأنهم لم يحفظوا عليه كذْبَةً واحدة قبل رسالته، ويكاد يؤمن القيصر متأثِّراً في جملة ما تأثَّر، بهذه الشهادة التي انطلق بها لسان ألَدّ خصوم محمد يومئذٍ، ثم يقول في التعليق على كلام أبي سفيان والتنويه بصدق محمد عليه الصلاة والسلام: «ما كان (أي محمد) لِيَذَرَ الكَذِبَ على الناس ويكذبَ على الله»! والحديث طويل مشهور يرويه البخاري في صحيحه. فراجعه إن شئت[1].

وهذا قائل قريش يقول للنبي ﷺ في مَعْرِضٍ من المعارض: إنا لا نكذِّبك ولكن نكذِّب ما جئتَ به[2]. وبسبب ذلك أنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾[3].

ومما يذكر بالإعجاب والفخر لنبي الإسلام ﷺ أنه عرض الإسلام على بني عامر ابن صَعْصَعَة، وذلك قبل الهجرة، وقبل أن تقوم للدين شوكة، فقال كبيرهم: أرأيْتَ إن نحن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على مَنْ خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فأجابه ﷺ بتلك الكلمة الحكيمة الخالدة: «الأمرُ لله يضعهُ حيثُ يشاء»! فقال له كبيرهم أفتهدف[4] نحورُنا للعرب دونك، فإذا أظهرَك الله كانَ الأمرُ لغيرنا؟ لا حاجةَ لنا بأمرك.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب: ٦.

(٢) سنن الترمذي، تفسير سورة الأنعام (حديث: ٣٠٦٤).

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٣.

(٤) في القاموس: أهدف له الشيء عرض اهـ. وقال في لسان العرب، الإهداف: الدنو. أهدف له القوم أي قربوا... وكل شيء من استقبلك استقبالاً فهو مهدف مستهدف. اهـ. وقال الزمخشري في أساس البلاغة: أهدف له الشيء واستهدف: انتصب وعرض. وقال عبد الرحمٰن ابن أبي بكر لأبيه أبي بكر رضي الله تعالى عنهما: لقد أهدفت لي يوم بدر فصفت =

وهنا تتجلى سياسة الإسلام، وأنها سياسةٌ صريحة مكشوفة، ورشيدة شريفة، لا تعرف اللفَّ والدوران، ولا تعتمد الكذب والتضليل، كما تتجلى صراحةُ نبيِّ الإسلام، وصدقُ نبيِّ الإسلام، وشرف نبيِّ الإسلام؛ عليه الصلاة والسلام!!

نعم: لقد كان محمد ﷺ في ضيق أي ضيق، يحتاج إلى أقل معاونة من عدو أو صديق، وهذا حيٌّ من العرب يستطيع أن يكتسبه ويتقوى به، ولكنه عليه الصلاة والسلام، لا يستطيع أن يعدَ فيخلف، ولا أن يحدِّث فيكذب، ولا أن يعاهد فيغدر!

يسألونه أن يكونوا الخلفاء من بعده إذا أسلموا فيقول بملء فيه «الأمرُ لله يضعهُ حيثُ يشاءُ» ولو أنه قال إن شاء الله مثلاً لدانوا له أجمعين، وأصبحوا من حزبه وجنده المسلمين!.

مرحى مرحى لسياسة الإسلام. وأخلاق نبيِّ الإسلام!!.

وإذا كانت هذه الأخلاق العليا هي منار القدوة للصحابة في رسول الله، فكيف لا يتنبسون من هذه الأنوار، ولا يضربون في حياتهم على هذه الأوتار؟ فضلاً. عن أن يقال عنهم: إنهم يكذبون أو لا يتحرون في كتاب الله وسنة رسول الله ﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾[1].

العامل العاشر

سموُّ تربية الصحابة على فضائل الإسلام كلها، وكمال تأدبهم بآداب هذا الدين الحنيف وشدةُ خوفهم من الله، وصفاء نفوسهم إلى حدٍّ لا يتفق والكذب خصوصاً الكذب على الله تعالى، والتجنِّي على أفضل الخليقة صلوات الله وسلامه عليه.

يقول علماء الأخلاق والمشتغلون بعلم النفس وعلوم الاجتماع: إن الكذب جنايةٌ قبيحةٌ، لا يمكن أن يصدر إلا عن نفسٍ ساقطةٍ لم تتأدب، ولا يتصور أن يفشو إلا في شعبٍ شاذ لم يتهذب.

ونحن إذا استعرضنا تاريخ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ نشاهد العجب في

= عنك اهـ. فالفعل لازم غير متعد. ومعنى صفت عنك: ملت وأعرضت. تدبر (م).

(١) سورة النور، الآية: ١٦.

عظمة تأديب الإسلام لهم، وتربيته إياهم تربيةً ساميةً جعلتهم أشباه الملائكة يمشون على الأرض، لا سيما ناحية الصدق والأمانة، والتثبت والتحري والاحتياط. وذلك من كثرة ما قرَّر القرآن فيهم لهذه الفضائل، ومن عناية الرسول ﷺ بهم علماً وعملاً ومراقبة، حتى أصبحوا بنعمة من الله وفضلٍ منطبعةً قلوبهم على هذه الجلائل، متشبعةً نفوسهم بمبادىء الشرف والنبل، تأبى عليهم كرامتهم أن يقاربوا الكذب أو يقارفوا التهجم. لا سيما التهجم على مقام الكتاب العزيز، وكلام صاحب الرسالة ﷺ.

قالت عائشة رضي الله عنها: «ما كانَ خُلُقٌ أشدَّ على أصحاب رسول الله ﷺ منَ الكذبِ. ولقد كان رسول الله ﷺ يطَّلعُ على الرجلِ منْ أصحابِهِ على الكذبِ فما ينجلي منْ صدرِهِ حتى يعلم أنهُ أحدثَ توبةً لله عزَّ وجلَّ» رواه مسلم في مقدمة صحيحه.

عوامل أخرى

إذا استعرضت بعض العوامل السابقة في حفظ الصحابة للكتاب والسنة، تجد منها عوامل صالحة أيضاً لأن تكون دواعي تثبتهم في الكتاب والسنة، ولهذا أكتفي بالإشارة إليها دون إعادتها:

١ ـ فذكاء العرب وقوة حوافظهم وصفاء طبعهم إلى آخر ما ذكرنا في العامل الثاني هناك. لا شك أنه داعية من دواعي تثبتهم أيضاً، لأن الشأن فيمن نشأ على هذه الصفات؛ أن يكون واثقاً مما حفظ، فلا يحتاج إلى تزيُّدٍ ولا يقع في تهجم.

٢ ـ وحبُّ الصحابة لله ولرسوله عامل كذلك من عوامل التثبت، لأن المحب الصادق لا يقنع إلا بما يثق أنه كلام حبيبه من غير لبسٍ ولا شك، ولا يرضى أن يفتري الكذب على حبيبه، ولا يقبل أن يتقول عليه أو يتهجم في كلامه، خصوصاً إذا عرف أنه يكره ذلك منه. (انظر العامل الرابع من عوامل الحفظ).

٣ ـ وموقف الصحابة في محراب الفصاحة والبيان، وعلو كعبهم في نقد الكلام، وكمال ذوقهم في إدراك إعجاز القرآن وبلاغه النبي عليه الصلاة والسلام، كل أولئك ييسر عليهم التثبت، ويهون عليهم أن يردوا ما ليس من كلام الله وكلام رسوله، ضرورة أنهم يدركون الفوارق بين الأساليب الفاضلة والمفضولة، ويزنون كلامهم بموازينهم البلاغية الصادقة. (انظر العامل الخامس من عوامل الحفظ).

٤ ـ وعلم الصحابة بمنزلة الكتاب والسنة من الدين، يجعلهم بلا شك يهتمون بالتثبت منهما، والحيطة لهما. (انظر العامل السابع من عوامل الحفظ).

٥ ـ واقتران الكتاب بالإعجاز، واقتران السنة ببعض المعجزات والغرائب، ثم ارتباط كثير من آيات القرآن وأحاديث الرسول بالحوادث والوقائع، كل أولئك مما يجعل النفوس تتوثق منهما ولا تشتبه فيهما ولا تقبل التزيد والكذب عليهما. (انظر العامل الثامن والتاسع من عوامل الحفظ).

إذا جمعت هذه العوامل وأمثالها إلى العشرة المسطورة بين يديك، رأيت بضعة عشر عاملاً من الدواعي المتوافرة، والأدلة القائمة، على أمانة الصحابة وتثبتهم من الكتاب والسنة.

مظاهر هذا التثبت

وهكذا نتصفح تاريخ الصحابة، ونقتفي آثارهم، فإذا هي شواهد حق على تغلغل فضيلة الصدق فيهم، وشدة نفورهم، ونقاء ساحتهم من الكذب وما يشبه الكذب. هذا عمر رضي الله عنه يقول: «أَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا مَالَ لَمْ نَرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَسْماً، فَإِذَا رَأَيْنَاكُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَحْسَنُكُمْ خُلُقاً، فَإِذَا اخْتَبَرْنَاكُمْ فَأَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثاً». وهذا عليٌّ كرم الله وجهه يقول: «أعظم الخطايا عندَ الله عزَّ وجل اللسانُ الكذوبُ». ويقول مرة أخرى: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ، فلأَنْ أخِرَّ منَ السماء أحبُّ إليَّ منْ أنْ أكذبَ عليهِ».

وإن شئتم فاعجبوا من سعيد بن المسيب وهو أحد من ربَّاهم الصحابة: رمدتْ عيناه مرةً حتى بلغ الرمد خارجهما (والرمد وسخٌ أبيض من مجرى الدمع من العين) فقيل له: لو مسحت عينيك. فقال: وأين قول الطبيب: لا تمسَّ عينيك فأقول لا أفعل؟!.

وتدبروا ما رواه بسنده عن مجاهد قال: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس، فجعل يحدِّث ويقول: قال: رسول الله ﷺ. فجعل ابن عباس لا يأذَنُ له، ولا ينظر إليه. فقال: يابن عباس، ما لي لا أراك تسمع لحديثي، أُحدِّثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع! فقال ابن عباس: إنَّا كنَّا مرةً إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله ﷺ: ابْتَدَرَتْهُ أَبْصَارُنَا، وَأَصْغَيْنَا إليه بآذاننا، فلما رَكِب الناسُ الصعب والذَّلول، لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف.

ومن هذا الورع البالغ والحذر الدقيق، تحرَّج كثير من أكابر الصحابة عن الرواية والتحديث، فلم يسمع منهم إلا النزر اليسير، مع أن لديهم من رسول الله الغَمْر الكثير. يُحدِّث ابن الزبير ـ رضي الله عنه ـ فيقول: قلت لأبي: ما لي لا أسمعك تحدِّث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان؟ فقال: أَمَا إنِّي لم أُفارقْهُ مُنْذُ أسلمت ولكني سمعته يقول: من كذبَ عليَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النارِ» رواه البخاري وأبو داود.

وإذا كان هذا مظهراً من مظاهر حذرهم واحتياطهم للسنَّة النبوية، فماذا تقدر من مظاهر حذرهم واحتياطهم لكتاب الله العزيز؟! إني أعتقد أنك إذا رجعت إلى أدلة نزول القرآن على سبعة أحرف، تشاهد العجب العاجب من روائع هذه المظاهر.

فهذا عمر يأخذ بخناق هشام بن حكيم ويسوقه إلى النبي ﷺ وما نَقَم عليه إلا أنه قرأ سورة الفرقان على وجه لم يقرأْه عمر، ولم يكن يعرف عمر أنه هكذا نزل، ولم يرسل عمر هشاماً حتى انتهى به إلى رسول الله ﷺ وأمره الرسول أن يرسله، ثم استقرأهما عليه الصلاة والسلام، وقال في قراءة كليهما: «هٰكَذَا أُنْزِلَتْ». وقال: «إنَّ هٰذَا القرآن أُنزل عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فاقرؤُوا ما تيسر منهُ» هذا ملخَّص ما كان بين عمر وهشام، ومثل ذلك وقع من أُبي بن كعب وعبد اللَّه بن كعب وعبد اللَّه بن مسعود وغيرهما مع أصحابهم، مما تعرضه عليك الروايات المبسوطة هناك في هذا الموضوع!.

أضف إلى هذا تلك الدقَّة البالغة التي أجملناها لك في دستور أبي بكر ودستور عثمان رضي الله عنهما في جمع القرآن بالصحف والمصاحف، وهي على مقربة منك، فارجع إليها إن شئت.

ويشبه هذين الدستورين في جمع القرآن، دستور أبي بكر في حماية السنة والحيطة لها والتثبُّت منها، إذ جمع أصحاب رسول الله ﷺ وشاورهم في الأمر، ثم انتهوا إلى اتباع ما يأتي:

أن ينظروا في خبر الواحد نظرةً فاحصة، يعرضونه على كتاب الله تعالى وما تواتر أو اشتهر من حديث رسول الله ﷺ، فإن خالف شيئاً منها زيَّفوه وردوه، وإن لم يخالف نظروا نظرة ثانية فيمن جاء به، فلا يقبلون إلا ممن عرف بالعدالة والضبط والصدق والتحري، وإلا طالبوه بالتزكية من طريق آخر يشهد معه ويروي ما رواه، وبرغم هذا

وذاك فقد التزموا التقليل من الرواية لأن الإكثار مَظِنَّة الخطأ ومثار الاشتباه.

نعم: حداهم ورعهم وشدة خوفهم من الله، أن يحصّنوا حديث رسول الله ﷺ بهذا الدستور الدقيق الرشيد القائم على رعاية هذه القواعد الثلاث: النظر في الخبر، والنظر في المخبر، والإقلال من الرواية.

ويرحم الله ابن الخطاب فقد أخذ بالأسس التي وضعها أبو بكر لحياطة الكتاب والسنة، ثم بنى عليها، وشمخ بها وزاد فيها، حتى تشدَّد مع الأمناء الموثَّقين، وضيَّق الخناق على الصحابة المكثرين، حتى رُوي أنه حبس ثلاثة من مشاهير الصحابة سنةً كاملة، وما نقم منهم إلا أنهم أكثروا الرواية. وإذا صحَّ هذه فهو درسٌ قاسٍ من الفاروق لعامة الشعب في الاحتياط لأصول التشريع والتبصُّر والتدقيق في الرواية تحمّلاً وأداءً، على حدِّ قول الشاعر:

إنـي وقتلـي سُلَيْكـاً ثـم أَعْقِلَـهُ كالثَّوْرِ يُضرَب لَمَّا عافتِ البقرُ[1]

ثم جاء دور عثمان وعلي: فحذَوا حَذْوَ أبي بكر وعمر، إذ أوى الكتاب في كنفهما إلى ركن ركين وظل ظليل، وبقيت السنة في عهدهما رفيعة العِماد، قوية السِّناد، حتى تلقَّاها بنو أمية على ما تركها الخلفاء، بيضاء مشرقة، ليلُها كنهارها.

ولبثت السنة في العهد الأموي معتصمة بعزَّتها ومَنَعتها، حتى طلع نجم الملك العادل عمر بن عبد العزيز، على رأس المائة الثانية فردَّد صدر جدّه عمر بن الخطاب، في ضرورة صوْن السنة ووعْيها، ولكن رأى أن يكون ذلك عن طريق الكتابة والنقش في السطور، بعد أن وُعيت في العهد الماضي عن طريق الحفظ في القلوب والصدور. وبذلك انتقل الحديث النبوي إلى دور جديد سعيد، هو دور التأليف والكتابة والتقييد، مما كان له أبلغ الأثر في وصوله إليها موزوناً بأدقِّ موازين العلم والبحث الدقيق.

نتيجة ذلك:

ولقد كان من نتيجة ذلك كله أن أُحيط الكتاب والسنة بسياج من الفولاذ والحديد، وأن حُفظ الدين من العبث بأصول التشريع، وأن أخذ خلف الأمة درساً قيِّماً عن سلفهم الصالح في ضرورة الاستبراء للدين، واليقظة في حراسة الكتاب والسنة،

(١) كان العرب إذا عافت البقرة الوردَ ضربوا الثور لأنه قائدها.

ووجوب نقد الرُّواة وفحْص المرويَّات. وبهذا أيضاً أُخذ الطريق على الدس والدساسين وحِيكَت الشِّباك للدجالين والوضَّاعين، وأصبح الدين الإسلامي منيعَ الحوْزة، محفوظ الذمار، إلى درجة تفاخر بها شعوب العالم؛ وأمم الأرض، وأديان الدنيا، مما لا يكاد يوجد مثله ولا قريبٌ منه في تاريخ أية شريعة من الشرائع السماوية والوضعية، منذ خلق الله السمٰوات والأرض إلى يوم الناس هذا!.

الموقف خطير

ولا تحسبنَّ أيها القارىء الكريم أني بالغت أو أسرفت، وإن كنت قد أطلت وأكثرت، فإن هذا البحث جليل وخطير يتّصل في جلالته وخطورته بتلك الطائفة الممتازة التي اختارها الله لتلقي كتابه، ومعاصرة رسوله ﷺ وحسن النيابة عنه في نشر هداية الإسلام، والدفاع عن حِمَى الدين الحنيف.

أولئك هم حجر الزواية في بناء هذه الأمة المسلمة، عنهم قبل غيرهم تلقَّت الأمة كتاب الله، وحذَقت سنة رسول الله، وعرفت تعاليم الإسلام، فالغضُّ من شأنهم والتحقير لهم، بل النظر إليهم بالعين المجرَّدة من الاعتبار، لا يتفق والمركز السامي الذي تبوَّؤوه، ولا يوائم المهمة الكبرى التي انتدبوا لها ونهضوا بها، كما أن الطعن فيهم والتجريح لهم، يزلزل بناء الإسلام، ويقوّض دعائم الشريعة، ويشكِّك في صحة القرآن، ويضيّع الثقة بسنة سيد الأنام!

ومن أشد ما يُجرح به الصحابة اتهامهم بسوء الحفظ وعدم الضبط ولَمْزُهُم بالكذب وافتراء على الله ورسوله، ونبزهم بعدم التثبُّت والتحري في نقلهم كتاب الله وسنة رسوله إلى الأمة!

لذلك عُنِي علماء الإسلام قديماً وحديثاً بالدفاع عن عَرين الصحابة، لأنه ـ كما رأيت ـ دفاعٌ عن عَرين الإسلام. ولم يكن ذلك الدفاع نَزْوَةَ هَوى، ولا نَبْوَةَ عصبية، بل كان نتيجة لدراسات تحليلية، وأبحاث تاريخية، وتحقيقات بارعة واسعة، أحصتهم عدداً، ونقدتهم فرداً فرداً، وعرضتهم على أدقِّ موازين الرجال، مما تُباهي به الأمة الإسلامية كافةَ الأمم والأجيال.

وبعد هذا التحقيق والتدقيق، خرج الصحابة رضي الله عنهم من بَوْتَقةِ هذا البحث، وإذا هم خير أمة أُخرجت للناس، وأسمى طائفة عرفها التاريخ، وأنبل

أصحاب النبيِّ ظهر على وجه الأرض، وأوعى وأضبط جماعة لما استُحْفِظُوا عليه من كتاب الله وهَدْي رسول الله ﷺ.

وقد اضطُرَّ أهل السنة والجماعة، أن يعلنوا رأيهم هذا كعقيدة، فقرَّروا أن الصحابة عدول. ولم يشذَّ عن هذا الرأي إلا المبتدعة والزنادقة وقبَّحهم الله ـ قال أبو زُرْعة الرازي: «إذا رأيت الرجل يتنقص أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك لأن الرسول حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدى ذلك إلينا كلُّه الصحابة. وهؤلاء (يعني الزنادقة) يريدون أن يَجْرَحوا شهودنا، ليبطلوا الكتاب والسنة، والجَرْح بهم أولى، وهم زنادقة»! اهـ.

شهادة عليا من الله للصحابة

وفوق ما تقدم نجد الحق سبحانه وتعالى، يمتدح أصحاب محمد ﷺ غير مرة، ونرى الرسول ﷺ يُطْري صحابته في غير موضع. اقرأ إن شئت قوله جلَّ جلاله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[1] إلى آخر سورة الفتح. ثم اقرأ إن شئت قوله عزَّ اسمه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾[2] وقوله جلَّت حكمته: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[3] في سورة الحشر، وتأمل قوله عزّ من قائل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[4] إلخ، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[5]. ولا ريب أن الصحابة هم المشافهون بهذا الخطاب، فهم داخلون في مضمونه بادىء ذي بدء، متحقِّقون بمزاياه أول الأمر!!

شهادة الرسول ﷺ لأصحابه

وكذلك نقرأ في صحيح السنَّة ما يشهد بفضل الصحابة وكمال امتيازهم على

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الحديد، الآية: ١٠.
(٣) سورة الحشر، الآيتان: ٨ ـ ٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

الثقلين سوى النبيين والمرسلين. روى الترمذي وابن حبان في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «الله الله في أصحابي، لا تتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً، فمنْ أَحَبَّهُمْ فبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهم فبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فقد آذاني وَمَنْ آذَانِي فقد آذَى الله فيُوشِكُ أن يَأْخُذَهُ»(١).

وروى البزّار في مُسنده برجال كلهم موثَّقون أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله اختارَ أصحابي على الثَّقَلَيْنِ سِوَى النَّبِيِّينَ وَالمُرْسَلِينَ» وجاء في صحيح البخاري ومسلم أنه ﷺ قال في شأن أصحابه: «لَوْ أنفقَ أحَدُكُمْ مثلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا أَدْرَكَ مُدَّ أحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ»(٢). وتواتر عنه ﷺ أنه قال: «خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلونَهمْ...»(٣).

فأنت ترى من هذه الشهادات العالية في الكتاب والسنة، ما يرفع مقام الصحابة إلى الذِّرْوَة، وما لا يترك لطاعن فيهم دليلاً ولا شبه دليل.

حكمة الله في اختيار الصحابة

والواقع أن العقل المجرَّد من الهوى والتعصُّب، يُحيل على الله في حكمته ورحمته، أن يختار لحمل شريعته الختامية أمةً مغموزة أو طائفة ملموزة تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيراً. ومن هنا كان توثيق هذه الطبقة الكريمة طبقة الصحابة، يعتبر دفاعاً عن الكتاب والسنة وأصول الإسلام من ناحية، ويعتبر إنصافاً أدبيًّا لمن يتحدَّثُونه من ناحية ثانية، ويعتبر تقديراً لحكمة الله البالغة في اختيارهم لهذه المهمة العظمى من ناحية ثالثة. كما أن توهينهم والنَّيل منهم، يُعَدُّ غَمْزاً في هذا الاختيار الحكيم، ولَمْزاً في ذلك الاصطفاء والتكريم، فوق ما فيه من هدم الكتاب والسنة والدين.

على أن المتصفح لتاريخ الأمة العربية وطبائعها ومميِّزاتها، يرى من سلامة عنصرها، وصفاء جوهرها، وسموِّ مميزاتها، ما يجعله يحكم مطمئناً، بأنها صارت خير أمة أُخرجت للناس، بعد أن صَهرَها الإسلام. وطهَّرها القرآن، ونفى خبثَها سيدُ الأنام، عليه الصلاة والسلام.

---

(١) رواه الترمذي في المناقب: ٥٨؛ وأحمد: ٤/٨٧.

(٢) صحيح البخاري: فضائل الصحابة: ٥؛ وصحيح مسلم، فضائل الصحابة: ٢٢١، ٢٢٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، حديث: ٢١٢.

ولكن الإسلام قد ابتُلي حديثاً بمثل أو بأشدَّ مما ابتُلي به قديماً، فانطلقت ألسنةٌ في هذا العصر تُرجف في كتاب الله بغير علم، وتخوض في السنة بغير دليل، وتطعن في الصحابة دون استحياء، وتنال من حَفظة الشريعة بلا حجَّة، وتتَّهمهم تارةً بسوء الحفظ، وأخرى بالتزيُّد وعدم التثبُّت وقد زوَّدناك وسلَّحناك فانزل في الميدان ولا تخشَ عِدَاك. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾[1] نصرنا الله بنصرة الإسلام، وثبَّت منا الأقدام والأقلام، والحمد لله في البدء وفي الختام، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحابته الأعلام، آمين.

(١) سورة محمد، الآية: ٧.